

## سورة الأنفال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنفال: مدنية بدرية في قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء. وقال ابن عباس: هي مدنية إلا سبع آيات، من قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخر السبع آيات.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾

فيه سبع مسائل:

**الأولى:** روى عبادة بن الصامت قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بدر فلقوا العدو؛ فلما هزمهم الله اتبعتهم طائفة من المسلمين يقتلونهم، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ، واستولت طائفة على العسكر والنهب؛ فلما نفى الله العدو ورجع الذين طلبوهم قالوا: لنا النفل، نحن الذين طلبنا العدو وبنا نفاهم الله وهزمهم. وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: ما أنتم أحق به منا، بل هو لنا، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ لثلاثين عامًا من غرة. وقال الذين استولوا على العسكر والنهب: ما أنتم بأحق منا، هو لنا، نحن حويناها واستولينا عليه؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾. فقسمه رسول الله ﷺ عن فواق بينهم<sup>(١)</sup>. قال أبو عمر: قال أهل العلم بلسان العرب: استلوا أطفوا وأحاطوا؛ يقال: الموت مستلوا على العباد. وقوله «فقسمه عن فواق» يعني عن سرعة. قالوا: والفواق ما بين حلبتي الناقة. يقال: انتظره فواق ناقة، أي هذا المقدار. ويقولونها بالضم والفتح: فُواق وفُواق. وكان هذا قبل أن ينزل ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [الأنفال: ٤١] الآية. وكان المعنى عند العلماء: أي إلى الله وإلى الرسول الحكيم فيها والعمل بها بما يقرب من الله تعالى. وذكر محمد بن إسحاق قال: حدثني عبدالرحمن بن الحارث وغيره من أصحابنا عن سليمان بن موسى الأشدق عن مكحول عن أبي أمامة الباهلي قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال: فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فترعه الله من أيدينا وجعله إلى الرسول، فقسمه رسول الله ﷺ عن بواء. يقول: على السواء. فكان ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وصلاح ذات البين<sup>(٢)</sup> وروي في

(١) كذا عند الطبري (٩/ ١٨٤) في تفسيره، وانظر التالي.

(٢) رواه الحاكم (٢/ ٣٢٦) في المستدرک وصححه الأرناؤوط ووافقه الذهبي، ورواه أحمد (٥/ ٣٢٣، ٣٢٤) في المسند، والواحدى ص ١٩٠ في أسباب النزول وحسنه الأرناؤوط رحمه الله كما عند ابن حبان (٤٨٥٥) وإن كان سليمان الأشدق - وقد حكم عليه أبو حاتم بالاضطراب في بعض حديثه، كما في ضعفاء وابن الجوزي (١٥٤٩) وحسنه ابن كثير في البداية وقال: وسليمان بن موسى الأشدق، وعبد الرحمن بن الحارث: كلاهما فيه سفل =

الصحيح عن سعد بن أبي وقاص قال: اغتتم أصحاب رسول الله ﷺ غنيمة عظيمة، فإذا فيها سيف، فأخذته فأتيت به النبي ﷺ فقلت: نفلني هذا السيف، فأننا من قد علمت حاله. قال: «رده من حيث أخذته» فانطلقت حتى أردت أن ألقيه في القبض لامتني نفسي فرجعت إليه فقلت: أعطنيه. قال: فشد لي صوته «رده من حيث أخذته» فانطلقت حتى أردت أن ألقيه في القبض لامتني نفسي فرجعت إليه فقلت: أعطنيه، قال: فشد لي صوته: «رده من حيث أخذته» فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾. لفظ مسلم<sup>(١)</sup>. والروايات كثيرة، وفيما ذكرناه كفاية، والله الموفق للهداية.

الثانية: الأنفال واحدها نفل بتحريك الفاء؛ قال:

إِنَّ تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرَ نَفْلِ وَيَأْذِنُ اللَّهُ رَبِّي وَالْمَعْجَلُ

أي: خير غنيمة. والنفل: اليمين؛ ومنه الحديث «قتبرنكم يهود بنفل خمسين منهم»<sup>(٢)</sup>. والنفل الانتفاء؛ ومنه الحديث «فانتقل من ولدها»<sup>(٣)</sup>. والنفل: نبت معروف، والنفل: الزيادة على الواجب، وهو التطوع. وولد الولد نافلة؛ لأنه زيادة على الولد. والغنيمة نافلة؛ لأنها زيادة فيما أحل الله لهذه الأمة مما كان محرما على غيرها. قال ﷺ: «فضلت على الأنبياء بست - وفيها - وأحلت لي الغنائم»<sup>(٤)</sup>. والأنفال: الغنائم أنفسها. قال عنترة:

إِنَّا إِذَا أَحْمَرَّ الْوَعَى نَرَوِي الْقَنَا وَنَعْفُ عِنْدَ مَقَاسِمِ الْأَنْفَالِ

أي: الغنائم.

الثالثة: واختلف العلماء في محل الأنفال على أربعة أقوال: الأول: محلها فيما شذ عن الكافرين

إلى المسلمين أو أخذ بغير حرب. الثاني: محلها الخمس. الثالث: خمس الخمس. الرابع: رأس الغنيمة؛ حسب ما يراه الإمام. ومذهب مالك رحمه الله أن الأنفال مواهب الإمام من الخمس، على ما يرى من الاجتهاد، وليس في الأربعة الأقسام نفل، وإنما لم ير النفل من رأس الغنيمة لأن أهلها معينون وهم الموحفون<sup>(٥)</sup>، والخمس مردود قسمه إلى اجتهاد الإمام، وأهله غير معينين. قال ﷺ: «ما لي مما آفأه الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم»<sup>(٦)</sup>. فلم يمكن بعد هذا أن يكون النفل من حق أحد، وإنما يكون من حق رسول الله ﷺ وهو الخمس. هذا هو المعروف من مذهبه وقد روي عنه أن ذلك من خمس الخمس. وهو قول ابن المسيب والشافعي وأبي حنيفة. وسبب الخلاف حديث ابن عمر، رواه مالك قال: بعث رسول الله ﷺ سرية قبل نجد فغنموا إبلا كثيرة، وكانت سهامانهم اثني عشر بعيرا أو أحد عشر بعيرا؛ ونفلوا بعيرا بعيرا<sup>(٧)</sup>. هكذا رواه مالك على الشك في

= لا ينزل حديثهما عن رتبة الحسن - والله أعلم - .

(١) صحيح : مسلم (١٧٤٨) في الجهاد والسير . والقبض : بفتح الباء : المقبوض من الغنيمة .

(٢) صحيح : رواه البخاري وقد سبق .

(٣) كذا رواه ابن الأثير (٥ / ١٠٠) في النهاية . (٤) صحيح : وقد سبق .

(٥) الموحفون : من الإيجاب : وهو سرعة السير أو الإغارة .

(٦) صحيح : أبو داود (٢٧٥٥) ، النسائي (٧ / ١٣١) ابن ماجه (٢٨٥٠) عن عبادة بن الصامت وصححه الألباني .

(٧) صحيح : البخاري (٤٣٣٨) في المغازي ، ومسلم (١٧٤٩) في الجهاد ، مالك (٢ / ٤٥٠) في الجهاد - جامع =

رواية يحيى عنه، وتابعه على ذلك جماعة رواة الموطأ إلا الوليد بن مسلم فإنه رواه عن مالك عن نافع عن ابن عمر، فقال فيه: فكانت سهمانهم اثني عشر بعيرا، ونفلوا بعيرا بعيرا<sup>(١)</sup>. ولم يشك. وذكر الوليد بن مسلم والحكم بن نافع عن شعيب بن أبي حمزة عن نافع عن ابن عمر قال: بعثنا رسول الله ﷺ في جيش قبل نجد - في رواية الوليد: أربعة آلاف - وانبعثت سرية من الجيش - في رواية الوليد: فكانت ممن خرج فيها - فكان سهمان الجيش اثني عشر بعيرا، اثني عشر بعيرا؛ ونفل أهل السرية بعيرا بعيرا؛ فكان سهمانهم ثلاثة عشر بعيرا<sup>(٢)</sup>؛ ذكره أبو داود. فاحتج بهذا من يقول: إن النفل إنما يكون من جملة الخمس، وبيانه أن هذه السرية لو نزلت على أن أهلها كانوا عشرة مثلا أصابوا في غنيمتهم مائة وخمسين، أخرج منها خمسها ثلاثين وصار لهم مائة وعشرون، قسمت على عشرة وجب لكل واحد اثنا عشر بعيرا، اثنا عشر بعيرا، ثم أعطي القوم من الخمس بعيرا بعيرا؛ لأن خمس الثلاثين لا يكون فيه عشرة أبعرة. فإذا عرفت ما للعشرة عرفت ما للمائة والألف وأزيد. واحتج من قال: إن ذلك كان من خمس الخمس بأن قال: جائز أن يكون هناك ثياب تباع ومتاع غير الإبل، فأعطى من لم يبلغه البعير قيمة البعير من تلك العروض. وما يعضد هذا ما روى مسلم في بعض طرق هذا الحديث: فأصبنا إبلا وغنما؛ الحديث<sup>(٣)</sup>. وذكر محمد بن إسحاق في هذا الحديث أن الأمير نفلهم قبل القسم، وهذا يوجب أن يكون النفل من رأس الغنيمة، وهو خلاف قول مالك. وقول من روى خلافه أولى لأنهم حفاظ؛ قاله أبو عمر رحمه الله. وقال مكحول والأوزاعي: لا ينفل بأكثر من الثلث؛ وهو قول الجمهور من العلماء. قال الأوزاعي: فإن زادهم فليف لهم ويجعل ذلك من الخمس. وقال الشافعي: ليس في النفل حد لا يتجاوزه الإمام.

الرابعة: ودل حديث ابن عمر على ما ذكره الوليد، والحكم عن شعيب عن نافع أن السرية إذا خرجت من العسكر فغنمت أن العسكر شركاؤهم. وهذه مسألة وحكم لم يذكره في الحديث غير شعيب عن نافع، ولم يختلف العلماء فيه، والحمد لله.

الخامسة: واختلف العلماء في الإمام يقول قبل القتال: من هدم كذا من الحصن فله كذا، ومن بلغ إلى موضع كذا فله كذا، ومن جاء برأس فله كذا، ومن جاء بأسير فله كذا؛ يضربهم<sup>(٤)</sup>. فروي عن مالك أنه كرهه. وقال: هو قتال على الدنيا. وكان لا يجيزه. قال الثوري: ذلك جائز ولا بأس به.

قلت: وقد جاء هذا المعنى مرفوعا من حديث ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال النبي ﷺ: «من قتل قتيلا فله كذا ومن أسر أسيرا فله كذا». الحديث<sup>(٥)</sup> بطوله. وفي رواية عكرمة عنه عن

= النفل .

- (١) انظر الموطأ في السابق .
- (٢) صحيح : أبو داود (٢٧٤١ ، ٢٧٤٦) في الجهاد .
- (٣) صحيح : سبق تخريجه .
- (٤) قصد بكلمة يضربهم : يغربهم .
- (٥) صحيح : أبو داود (٢٧٣٨) في الجهاد .

النبي ﷺ: «من فعل كذا وكذا وأتى مكان كذا وكذا فله كذا». فتسارع الشبان وثبت الشيوخ مع الرايات؛ فلما فتح لهم جاء الشبان يطلبون ما جعل لهم فقال لهم الأشياخ: لا تذهبون به دوننا، فقد كنا رداء لكم؛ فأنزل الله تعالى (١) ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ ذكره إسماعيل بن إسحاق أيضا. وروي عن عمر بن الخطاب أنه قال لجرير بن عبد الله البجلي لما قدم عليه في قومه وهو يريد الشام: هل لك أن تأتي الكوفة ولك الثلث بعد الخمس من كل أرض وسبي؟. وقال بهذا جماعة فقهاء الشام: الأوزاعي ومكحول وابن حيوة وغيرهم. ورأوا الخمس من جملة الغنيمة، والنفل بعد الخمس ثم الغنيمة بين أهل العسكر؛ وبه قال إسحاق وأحمد وأبو عبيد. قال أبو عبيد: والناس اليوم على أن لا نفل من جهة الغنيمة حتى تخمس. وقال مالك: لا يجوز أن يقول الإمام لسرية: ما أخذتم فلکم ثلثه. قال سحنون: يريد ابتداء. فإن نزل مضى، ولهم أنصباؤهم في الباقي. وقال سحنون: إذا قال الإمام لسرية ما أخذتم فلا خمس عليكم فيه؛ فهذا لا يجوز، فإن نزل رددته؛ لأن هذا حكم شاذ لا يجوز ولا يمضى.

السادسة: واستحب مالك رحمه الله ألا ينفل الإمام إلا ما يظهر كالعمامة والفرس والسيف. ومنع بعض العلماء أن ينفل الإمام ذهباً أو فضة أو لؤلؤاً ونحوه. وقال بعضهم: النفل جائز من كل شيء. وهو الصحيح لقول عمر ومقتضى الآية، والله أعلم.

السابعة: قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أمر بالتقوى والإصلاح، أي كونوا مجتمعين على أمر الله في الدعاء: اللهم أصلح ذات البين، أي الحال التي يقع بها الاجتماع. فدل هذا على التصريح بأنه شجر بينهم اختلاف، أو مالت النفوس إلى التشاح؛ كما هو منصوص في الحديث. وتقدم معنى التقوى، أي: اتقوا الله في أقوالكم، وأفعالكم، وأصلحوا ذات بينكم. ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الغنائم ونحوها. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن سبيل المؤمن أن يمتثل ما ذكرنا. وقيل «إن» بمعنى «إذ».

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾، فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قال العلماء: هذه الآية تحريض على إلزام طاعة الرسول ﷺ فيما أمر به من قسمة تلك الغنيمة. والوجل: الخوف. وفي مستقبله أربع لغات: وِجَلٌ يُوجَلُ وَيَجَلُّ وَيَسْجَلُّ وَيَسْجَلُّ، حكاة سيويه. والمصدر وِجَلٌ وَجَلًا وَمَوْجَلًا؛ بالفتح. وهذا موجهه «بالكسر» للموضع والاسم. فمن قال: ياجل في المستقبل جعل الواو ألفا لفتحة ما قبلها. ولغة القرآن الواو ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ [الحجر: ٥٣]

(١) صحيح: أبو داود (٢٧٣٧) وصححه الألباني، والطبري (٩/ ١٨٣) في تفسيره، والواحد ص ١٩٠ في أسباب النزول.

ومن قال «ييجل» بكسر الياء فهي على لغة بني أسد، فإنهم يقولون: أنا إيجل، ونحن نيجل، وأنت تيجل؛ كلها بالكسر. ومن قال «ييجل» بناه على هذه اللغة، ولكنه فتح الياء كما فتحوها في يعلم، ولم تكسر الياء في يعلم لاستئصالهم الكسر على الياء. وكسرت في «ييجل» لتقوى إحدى الياءين بالأخرى. والأمر منه «إيجل» صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها. وتقول: إني منه لأوجل. ولا يقال في المؤنث: وجلاء: ولكن وجلة. وروى سفيان عن السدي في قوله جل وعز: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: إذا أراد أن يظلم مظلمة قيل له: اتق الله، ووجل قلبه.

الثانية: وصف الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بالخوف والوجل عند ذكره. وذلك لقوة إيمانهم ومراعاتهم لربهم، وكأنهم بين يديه. ونظير هذه الآية ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥]. وقال: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨]. فهذا يرجع إلى كمال المعرفة وثقة القلب. والوجل: الفزع من عذاب الله؛ فلا تناقض. وقد جمع الله بين المعنيين في قوله ﴿اللَّهُ نَزَلُ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]. أي تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلى الله وإن كانوا يخافون الله. فهذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته؛ لا كما يفعل جهال العوام والمبتدعة الطعام<sup>(١)</sup> من الزعيق والزئير ومن النهاق الذي يشبه نهاق الحمير. فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وجد وخشوع: لم تبلغ أن تساوي حال الرسول ولا حال أصحابه في المعرفة بالله، والخوف منه، والتعظيم لجلاله؛ ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفاً من الله. ولذلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]. فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم. ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقتهم؛ فمن كان مستنفاً فليستن، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أخسهم حالاً؛ والجنون فنون. روى مسلم عن أنس بن مالك أن الناس سألوا النبي ﷺ حتى أحفوه في المسألة، فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال: «سلوني لا تسألوني عن شيء إلا بينته لكم ما دمت في مقامي هذا». فلما سمع ذلك القوم أرموا ورهبوا أن يكون بين يدي أمر قد حضر. قال أنس: فجعلت ألتفت يمينا وشمالاً فإذا كل إنسان لاف رأسه في ثوبه يبكي. وذكر الحديث<sup>(٢)</sup>. وروى الترمذي وصححه عن العرياض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب. الحديث<sup>(٣)</sup>. ولم يقل: زعقنا ولا رقصنا ولا زفنا<sup>(٤)</sup> ولا قمنا.

الثالثة: قوله تعالى ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ أي تصديقاً. فإن إيمان هذه الساعة زيادة على إيمان أمس؛ فمن

(١) الطغام: في اللسان: أراذل الناس وأرغادهم.

(٢) حديث صحيح: وقد سبق، وقوله: أحفوه: يعني استقصوا في السؤال كما في النهاية (١/ ٤١٠)، وأرموا: سكتوا فلم يجيبوا - كما في السابق (٢/ ٢٦٧).

(٣) صحيح: وقد سبق عند أصحاب السنن إلا النسائي - رحمه الله - .

(٤) زفنا: رقصوا - كما في اللسان ص ١٨٤٣.

صدق ثانيا وثالثا فهو زيادة تصديق بالنسبة إلى ما تقدم. وقيل: هو زيادة انشراح الصدر بكثرة الآيات والأدلة؛ وقد مضى هذا المعنى في «آل عمران». ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ تقدم معنى التوكل في «آل عمران» أيضا. ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ تقدم في أول سورة «البقرة».

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي الذي استوى في الإيمان ظاهرهم وباطنهم. ودل هذا على أن لكل حق حقيقة؛ وقد قال عليه السلام لحارثة «إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟»<sup>(١)</sup> الحديث. وسأل رجل الحسن فقال: يا أبا سعيد؛ أمؤمن أنت؟ فقال له: الإيمان إيمانان، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب فإنا به مؤمن. وإن كنت تسألني عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فوالله ما أدري أنا منهم أم لا. وقال أبو بكر الواسطي: من قال أنا مؤمن بالله حقا؛ قيل له: الحقيقة تشير إلى إشراف واطلاع وإحاطة؛ فمن فقد بطل دعواه فيها. يريد بذلك ما قاله أهل السنة: إن المؤمن الحقيقي من كان محكوما له بالجنة، فمن لم يعلم ذلك من سر حكمته تعالى فدعواه بأنه مؤمن حقا غير صحيح.

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ قال الزجاج: الكاف في موضع نصب؛ أي الأنفال ثابتة لك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق. أي مثل إخراجك ربك من بيتك بالحق. والمعنى: امض لأمرك في الغنائم ونقل من شئت وإن كرهوا؛ لأن بعض الصحابة قال لرسول الله ﷺ حين جعل لكل من أتى بأسير شيئا قال: يبقى أكثر الناس بغير شيء. فموضع الكاف في ﴿كَمَا﴾ نصب كما ذكرنا. وقال الفراء أيضا. قال أبو عبيدة: هو قسم، أي والذي أخرجك؛ فالكاف بمعنى الواو، وما بمعنى الذي. وقال سعيد بن مسعدة: المعنى أولئك هم المؤمنون حقا كما أخرجك ربك من بيتك بالحق. قال وقال بعض العلماء ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم. وقال عكرمة: المعنى أطيعوا الله ورسوله كما أخرجك. وقيل ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ﴾ متعلق بقوله «لهم درجات» المعنى: لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم. أي هذا الوعد للمؤمنين حق في الآخرة كما أخرجك ربك من بيتك بالحق الواجب له؛ فأنجزك وعدك. وأظفرك بعدوك وأوفى لك؛ لأنه قال عز وجل: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ أُحُدَىٰ الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]. فكما أنجز هذا الوعد في الدنيا كذا ينجزكم ما وعدكم به في الآخرة. وهذا قول حسن ذكره النحاس واختاره. وقيل: الكاف في ﴿كَمَا﴾ كاف التشبيه، ومخرجه على سبيل المجازاة؛ كقول القائل لعبده: كما وجهتك إلى أعدائي فاستضعفوك وسألت مددا فأمددتك وقويتك وأزحت علتك، فخذهم الآن فعاقبهم بكذا. وكما كسوتك وأجريت عليك الرزق فاعمل كذا وكذا. وكما أحسنت إليك فاشكرني عليه. فقال: كما

(١) ضعيف: رواه البزار وفيه يوسف بن عطية لا يحتج به كما في مجمع الزوائد (١/ ٥٧) عن أنس ورواه الطبراني في الكبير وفيه ابن لهيعة، وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه كما في السابق عن الحارث بن مالك الأنصاري، وجعل ابن رجب الخليلي في شرح الحديث (٢) من جامع العلوم والحكم المرسل أصح.

أخرجك ربك من بيتك بالحق وغشاكم النعاس أمنة منه - يعني به إياه ومن معه - وأنزل من السماء ماء ليطهركم به، وأنزل عليكم من السماء ملائكة مردفين؛ فاضربوا فوق الأعناق وأضربوا منهم كل بنان. كأنه يقول: قد أرحمت عللكم، وأمددتكم بالملائكة فاضربوا منهم هذه المواضع، وهو المقتل؛ لتبلغوا مراد الله في إحقاق الحق وإبطال الباطل. والله أعلم. ﴿وَأَنْ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ أي لكارهون ترك مكة وترك أموالهم وديارهم.

﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ مجادلتهم: قولهم لما نديهم إلى العير وفات العير وأمرهم بالقتال ولم يكن معهم كبير أهبة شق ذلك عليهم وقالوا: لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا العدة. ومعنى ﴿فِي الْحَقِّ﴾ أي في القتال. ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ لهم أنك لا تأمر بشيء إلا بإذن الله. وقيل: بعد ما تبين لهم أن الله وعدهم إما الظفر بالعير أو بأهل مكة، وإذ فات العير فلا بد من أهل مكة والظفر بهم. فمعنى الكلام الإنكار لمجادلتهم. ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ كراهة للقاء القوم. ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي يعلمون أن ذلك واقع بهم؛ قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ﴾ [النبا: ٤٠] أي يعلم.

﴿وَإِذْ يَدْعُكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنهَا لَكُمْ وَتَوَدُونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٤١﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٤١﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَدْعُكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنهَا لَكُمْ﴾ «إحدى» في موضع نصب مفعول ثان. ﴿أَنهَا لَكُمْ﴾ في موضع نصب أيضا بدلا من «إحدى». ﴿وَتَوَدُونَ﴾ أي تحبون «أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوكَةِ تَكُونُ لَكُمْ».

قال أبو عبيدة: أي غير ذات الحد. والشوكة: السلاح، والشوك: النبت الذي له حد؛ ومنه رجل شائك السلاح، أي حديد السلاح. ثم يقلب فيقال: شاكى السلاح. أي تودون أن تظفروا بالطائفة التي ليس معها سلاح ولا فيها حرب؛ عن الزجاج. ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي أن يظهر الإسلام. والحق حق أبدا، ولكن إظهاره تحقيق له من حيث إنه إذا لم يظهر أشبه الباطل. ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي بوعده؛ فإنه وعد نبيه ذلك في سورة «الدخان».

فقال ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦] أي من أبي جهل وأصحابه. وقال: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾. [التوبة: ٣٣]. وقيل: ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي بأمره إياكم أن تجاهدوهم. ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ أي يستأصلهم بالهلاك. ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ أي يظهر دين الإسلام ويعزه. ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ أي الكفر. وإبطاله إعدامه؛ كما أن إحقاق الحق إظهاره ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ۗ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ الاستغاثة: طلب الغوث والنصر، غوث الرجل قال: واغوثاه. والاسم الغوث والغوث والغوث. واستغاثني فلان فأغثته؛ والاسم الغياث؛ عن الجوهري، وروى مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وسبعة عشر رجلا؛ فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مد يديه، فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم ائمني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض». فما زال يهتف بربه ماذا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه. فأتاه أبو بكر فأخذ رداؤه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله تعالى ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴾ فأمده الله بالملائكة. وذكر الحديث <sup>(١)</sup>. «مردفين» بفتح الدال قراءة نافع. والباقون بالكسر اسم فاعل، أي متتابعين، تأتي فرقة بعد فرقة، وذلك أهيب في العيون. و«مردفين» بفتح الدال على ما لم يسم فاعله؛ لأن الناس الذين قاتلوا يوم بدر أرددوا بألف من الملائكة، أي أنزلوا إليهم لمعونتهم على الكفار. فمردفين بفتح الدال نعت لـ (ألف). وقيل: هو حال من الضمير المنصوب في ﴿ مُمِدُّكُمْ ﴾. أي مددكم في حال إردافكم بألف من الملائكة؛ وهذا مذهب مجاهد. وحكى أبو عبيدة أن ردفني وأردفني واحد. وأنكر أبو عبيد أن يكون أردف بمعنى ردف؛ قال لقول الله عز وجل ﴿ تَتَّبِعُهُ الرُّادِفَةُ ﴾ [النازعات: ٧] ولم يقل المردفة. قال النحاس ومكي وغيرهما: وقراءة كسر الدال أولى؛ لأن أهل التأويل على هذه القراءة يفسرون، أي أردف بعضهم بعضا، ولأن فيها معنى الفتح على ما حكى أبو عبيدة، ولأن عليه أكثر القراء. قال سيويه: قرأ بعضهم «مردفين» بفتح الراء وشد الدال. وبعضهم «مردفين» بكسر الراء. وبعضهم «مردفين» بضم الراء، والدال مكسورة مشددة في القراءات الثلاث. فالقراءة الأولى تقديرها عند سيويه مرتدفين، ثم أدمم التاء في الدال، وألقى حركتها على الراء لئلا يلتقي ساكنان. والثانية كسرت فيها الراء لالتقاء الساكنين. وضمت الراء في الثالثة إتباعا لضمة الميم؛ كما تقول: رَدَّ وِرْدٍ وِرْدٍ يا هذا. وقرأ جعفر بن محمد وعاصم الجحدري: «بألف» جمع ألف؛ مثل فلس وأفلس، وعنهما أيضا «بألف». وقد مضى في «آل عمران» ذكر نزول الملائكة وسماهم وقتالهم. وتقدم فيها القول في معنى قوله ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ ﴾ [آل عمران: ١٢٦]. والمراد الإمداد. ويجوز أن يكون الإرداف. ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾. نبه على أن النصر من عنده جل وعز لا من الملائكة؛ أي لولا نصره لما انتفع بكثرة العدد بالملائكة. والنصر من عند الله يكون بالسيف ويكون بالحجة.

(١) صحيح: مسلم (١٧٦٣/ ٥٨) في الجهاد والسير مطولا.

﴿ إِذْ يُغَشِّكُمُ النَّعَاسُ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيَطَهِّرَ كُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّكُمُ النَّعَاسُ﴾ مفعولان. وهي قراءة أهل المدينة، وهي حسنة لإضافة الفعل إلى الله عز وجل لتقدم ذكره في قوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾. ولأن بعده ﴿وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ﴾ فأضاف الفعل إلى الله عز وجل. فكذاك الإغشاء يضاف إلى الله عز وجل ليتشاكل الكلام. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «إِذْ يُغَشَّاكُمُ النَّعَاسُ» بإضافة الفعل إلى النعاس. دليله ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى﴾ [آل عمران: ١٥٤] في قراءة من قرأ بالياء أو بالتاء؛ فأضاف الفعل إلى النعاس أو إلى الأمنة. والأمنة هي النعاس؛ فأخبر أن النعاس هو الذي يغشى القوم. وقرأ الباقر «يُغَشِّيكُمْ» بفتح الغين وشد الشين. «النَّعَاسُ» بالنصب على معنى قراءة نافع، لغتان بمعنى غشى وأغشى؛ قال الله تعالى ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ [يس: ١٩]. وقال ﴿فَفَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾ [النجم: ٥٤]. وقال ﴿كَأَنَّمَا أَغْشَيْتَ وَجُوهَهُمْ﴾ [يونس: ٢٧]. قال مكي: والاختيار ضم الياء والتشديد ونصب النعاس؛ لأن بعده ﴿أَمَنَةً مِنْهُ﴾ والهاء في «منه» لله، فهو الذي يغشيهما النعاس، ولأن الأكثر عليه. وقيل: أمنة من العدو و«أمنة» مفعول من أجله أو مصدر؛ يقال: أمن أمنة وأمنا وأمانا؛ كلها سواء. والنعاس حالة الأمن الذي لا يخاف. وكان هذا النعاس في الليلة التي كان القتال من غدها؛ فكان النوم عجيبا مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهم، ولكن الله ربط جاشهم. وعن علي رضي الله عنه قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد على فرس أبلق، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح<sup>(١)</sup>؛ ذكره البيهقي. الماوردي: وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان: أحدهما: أن قواهم بالاستراحة على القتال من الغد. ثانيهما: أن أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم؛ كما يقال: الأمن منيم، والخوف مسهر. وقيل: غشاهم في حال التقاء الصفيين. وقد مضى مثل هذا في يوم أحد في «آل عمران».

قوله تعالى: ﴿وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيَطَهِّرَ كُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ ظاهر القرآن يدل على أن النعاس كان قبل المطر. وقال ابن أبي نجیح: كان المطر قبل النعاس. وحكى الزجاج: أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر فنزلوا عليه، وبقي المؤمنون لا ماء لهم، فوجست<sup>(٢)</sup> نفوسهم وعطشوا وأجنبا وصلوا كذلك؛ فقال بعضهم في نفوسهم بإلقاء الشيطان إليهم: نزع أنا أولياء الله وفينا رسوله وحالنا هذه والمشركون على الماء. فأنزل الله المطر ليلة بدر السابعة عشرة من رمضان حتى سالت الأودية؛ فشربوا وتطهروا وسقوا الظهر<sup>(٣)</sup> وتلبدت السبخة<sup>(٤)</sup> التي كانت بينهم وبين المشركين حتى ثبتت فيها أقدام المسلمين وقت القتال. وقد قيل: إن

(١) صحيح: أحمد (١/ ١٢٥) في المسند وصححه العلامة شاكر برقم (١٠٢٣) والبيهقي (٣/ ٣٨، ٣٩) في

الدلائل. وأبلى: في اللسان: سواد وبياض.

(٢) وجست: في اللسان: وقع في نفوسهم الخوف.

(٣) الظهر: ما يركب عليه، ويحمل عليه من الدواب.

(٤) السبخة: في اللسان: أرض ذات ملح، وقيل: مكان تسوخ فيه الأقدام، قلت: وهو المقصود هنا.

هذه الأحوال كانت قبل وصولهم إلى بدر؛ وهو أصح، وهو الذي ذكره ابن إسحاق في سيرته وغيره. وهذا اختصاره: قال ابن عباس: لما أخبر رسول الله ﷺ بأبي سفيان أنه مقبل من الشام ندب المسلمين إليهم وقال: «هذه عير قريش فيها الأموال فاخرجوا إليهم لعل الله أن ينفلكموها» قال: فانبعث معه من خف؛ وثقل قوم وكرهوا الخروج، وأسرع رسول الله ﷺ لا يلوي (١) على من تعذر، ولا ينتظر من غاب ظهره، فسار في ثلاثمائة وثلاثة عشر من أصحابه من مهاجري وأنصاري.

وفي البخاري عن البراء بن عازب قال: كان المهاجرون يوم بدر نيفا وثمانين، وكان الأنصار نيفا وأربعين ومائتين (٢). وخرج أيضا عنه قال: كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر، على عدد أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوز معه إلا مؤمن (٣). وذكر البيهقي عن أبي أيوب الأنصاري قال: فخرجنا - يعني إلى بدر - فلما سرنا يوما أو يومين أمرنا رسول الله ﷺ أن نتعاد، ففعلنا فإذا نحن ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا، فأخبرنا النبي ﷺ بعدتنا، فسر بذلك وحمد الله وقال: «عدة أصحاب طالوت» (٤). قال ابن إسحاق (٥): وقد ظن الناس بأجمعهم أن رسول الله ﷺ لا يلقي حربا فلم يكثر استعدادهم. وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان تخوفا على أموال الناس، حتى أصاب خبرا من بعض الركبان أن محمدا رسول الله ﷺ قد استنفر لكم الناس؛ فحذر عند ذلك واستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري وبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشا يستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمدا ﷺ قد عرض لها في أصحابه؛ ففعل ضمضم. فخرج أهل مكة في ألف رجل أو نحو ذلك، وخرج النبي ﷺ في أصحابه، وأتاه الخبر عن قريش بخروجهم ليمنعوا غيرهم؛ فاستشار النبي ﷺ الناس، فقام أبو بكر فقال فأحسن، وقام عمر فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أمرك الله فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون، والذي بعثك بالحق لو سرت إلى برك الغماد - يعني مدينة الحبشة - لجالدنا معك من دونه؛ فسر بذلك رسول الله ﷺ ودعا له بخير، ثم قال: «أشيروا علي أيها الناس» يريد الأنصار. وذلك أنهم عدد الناس، وكانوا حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله، إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمنا، نمنعك مما تمنع منه أنفسنا وأبنائنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى أن عليها نصرته إلا بالمدينة، وأنه ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو بغير بلادهم. فلما قال ذلك رسول الله ﷺ كلمه سعد بن معاذ - وقيل سعد بن عباد، ويمكن أنهما تكلمتا جميعا في ذلك اليوم - فقال: يا رسول الله، كأنك تريدنا معشر الأنصار؟ فقال رسول الله ﷺ: «أجل» فقال: إنا قد آمنا بك

(١) يلوي : في اللسان : ينتظر .

(٢) صحيح : البخاري (٣٩٥٦) في المغازي .

(٣) صحيح : البخاري (٣٩٥٧) في المغازي منفردا به .

(٤) كذا عند البيهقي (٣/ ٢٧) في الدلائل .

(٥) صحيح : صححه الألباني (٢٥٤) في تحقيق فقه السيرة ، وهو عند ابن هشام في سيرته .

واتبعناك، فامض لما أمرك الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك. فقال رسول الله ﷺ: «امضوا على بركة الله فكأنني أنظر إلى مصارع القوم». فمضى رسول الله ﷺ وسبق قريشا إلى ماء بدر. ومنع قريشا من السبق إليه مطر عظيم أنزله الله عليهم، ولم يصب منه المسلمين إلا ما شد لهم دهس الوادي وأعانهم على المسير. والدهس: الرمل اللين الذي تسوخ فيه الأرجل. فنزل رسول الله ﷺ على أدنى ماء من مياه بدر إلى المدينة، فأشار عليه الحباب ابن المنذر بن عمرو بن الجموح بغير ذلك وقال له: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمئزلا أمئزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال عليه السلام: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة». فقال: يا رسول الله، إن هذا ليس لك بمنزل، فانهض بنا إلى أدنى ماء من القوم فننزله ونعور<sup>(١)</sup> ما وراءه من القلب<sup>(٢)</sup>، ثم نبني عليه حوضا فنملأه فنشرب ولا يشربون. فاستحسن رسول الله ﷺ ذلك من رأيه، وفعله. ثم التقوا فنصر الله نبيه. والمسلمين، فقتل من المشركين سبعين وأسر منهم سبعين، وانتقم منهم للمؤمنين، وشفى الله صدر رسوله عليه السلام وصدور أصحابه من غيظهم. وفي ذلك يقول حسان:

عَرَفْتَ دِيَارَ زَيْنَبٍ بِالكَثِيبِ	كَخَطِّ الْوَحْيِ فِي الْوَرَقِ الْقَشِيبِ (٣)
تَدَاوَلَهَا الرِّيحُ وَكَلَّ جَوْنَ	مِنَ الْوَسْمِيِّ مِنْهُمْ سَكُوبِ (٤)
فَأَمْسَى رُبْعَهَا خَلَقًا وَأَمْسَتْ	يِيَابَا بَعْدَ سَاكِنَتِهَا الْحَبِيبِ (٥)
فَدَعَّ عَنكَ التَّذَكُّرَ كُلَّ يَوْمٍ	وَرَدَّ حَرَارَةَ الصَّدْرِ الْكَثِيبِ
وَوَحَّيْتُ بِالَّذِي لَا عَيْبَ فِيهِ	بِصَدَقِ غَيْرِ إِخْبَارِ الْكَذُوبِ
بِمَا صَنَعَ الْإِلَهَ غَدَاةَ بَدْرِ	لَنَا فِي الْمُشْرِكِينَ مِنَ النَّصِيبِ
غَدَاةَ كَأَنَّ جَمْعَهُمْ حِرَاءٌ	بَدَتْ أَرْكَانُهُ جَنَحَ الْغُرُوبِ
فَلَاقَيْنَاهُمْ مَنَا بِجَمْعِ	كَأَسَدِ الْغَابِ مَرْدَانَ وَشَيْبِ
أَمَامِ مُحَمَّدٍ قَدْ وَازَرُوهُ	عَلَى الْأَعْدَاءِ فِي لَفْحِ الْحُرُوبِ (٦)
بِأَيْدِيهِمْ صَوَارِمُ مَرْهَفَاتِ	وَكَلَّ مَجْرِبِ خَاطِطِي الْكُعُوبِ (٧)
بَنُو الْأَوْسِ الْغَطَارِفُ وَازَرْتَهَا	بُنُو النَّجَارِ فِي السِّدِّينِ الصَّلِيبِ (٨)
فَعَادَرْنَا أَبَا جَهْلٍ صَرِيْعًا	وَعْتَبَةً قَدْ تَرَكْنَا بِالْجُبُوبِ (٩)

(١) نعور: فسد وندس - كما في اللسان .

(٢) القلب: ج (قلب) وهو البئر غير المطوية ، وطى البئر : البناء حوله كما سبق .

(٣) القشيب : الحديد .

(٤) جون: سحاب - (اللسان) ، والوسمي : مطر الربيع .

(٥) ييأبا : خراباً - (اللسان) .

(٦) وازروه : أعانوه ونصروه ، ولفح : حرارة .

(٧) خاطي : في اللسان : الضخم السمين ، أو صاحب الشرف والقدر .

(٨) الغطارف : ج (عظريف) وهو السيد الشريف ، والصليب : من الصلابة والشدة اللسان .

(٩) الجيوب : وجه الأرض - كما في اللسان - وقيل : التراب .

وَشَيْبَةً قَدُ تَرَكْنَا فِي رِجَالِ  
يَسَادِيهِمْ رَسُولَ اللَّهِ لَمَّا  
أَلَمْ تَحْمَدُوا كَلَامِي كَأَنَّ حَقًّا  
فَمَا نَطَقُوا، وَلَوْ نَطَقُوا لَقَالُوا  
ذَوِي نَسَبٍ إِذَا نَسَبُوا حَسِيبِ  
قَدْ فَتَنَاهُمْ كِبَاكِبَ فِي الْقَلْبِ (١)  
وَأَمْرَ اللَّهِ يَأْخُذُ بِالْقُلُوبِ  
أَصَبَتْ وَكَتَبْتُ ذَا رَأْيٍ مُصِيبِ

وهنا ثلاث مسائل:

الأولى: قال مالك: بلغني أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: «كيف أهل بدر فيكم؟» قال: «خيارنا» فقال: «إنهم كذلك فينا» (٢). فدل هذا على أن شرف المخلوقات ليس بالدوات، وإنما هو بالأفعال. فللملائكة أفعالها الشريفة من المواظبة على التسبيح الدائم. ولنا أفعالنا بالإخلاص بالطاعة. وتتفاضل الطاعات بتفضيل الشرع لها، وأفضلها الجهاد، وأفضل الجهاد يوم بدر؛ لأن بناء الإسلام كان عليه.

الثانية: ودل خروج النبي ﷺ ليلقى العير على جواز النفير للغنيمة لأنها كسب حلال. وهو يرد ما كره مالك من ذلك؛ إذ قال: ذلك قتال على الدنيا، وما جاء أن من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله دون من يقاتل للغنيمة، يراد به إذا كان قصده وحده وليس للدين فيه حظ. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: قالوا للنبي ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالعير، ليس دونها شيء. فناداه العباس وهو في الأسرى: لا يصلح هذا. فقال له النبي ﷺ: «ولم؟» قال: لأن الله وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك الله ما وعدك. فقال النبي ﷺ: «صدقت». وعلم ذلك العباس بحديث أصحاب النبي ﷺ وبما كان من شأن بدر، فسمع ذلك في أثناء الحديث (٣).

الثالثة: روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثاً، ثم قام عليهم فناداهم فقال: «يا أبا جهل بن هشام يا أمية بن خلف يا عتبة بن ربيعة يا شية بن ربيعة أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً». فسمع عمر قول النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يسمعون، وأنى يجيبون وقد جيفوا؟ قال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدر أن يجيبوا» (٤). ثم أمر بهم فسحبوا فألقوا في القلب، قلب بدر. «جيفوا» بفتح الجيم والياء، ومعناه أنتنوا فصاروا جيفاً. وقول عمر «يسمعون» استبعاد على ما جرت به حكم العادة. فأجابه النبي ﷺ بأنهم يسمعون كسمع الأحياء. وفي هذا ما يدل على أن الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقتها، وحيلولة بينهما، وتبدل حال وانتقال من دار إلى دار. قال رسول الله ﷺ: «إن الميت إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه

(١) كباكب : جماعة .

(٢) صحيح : البخاري (٣٩٩٢) في المغازي .

(٣) ضعيف : الترمذي (٣٠٨٠) في التفسير ، وضعفه الألباني هناك .

(٤) صحيح : وقد سبق .

ليسمع قرع نعالهم» الحديث (١). أخرجه الصحيح.

قوله تعالى: ﴿وَيُثِبَّتْ بِهِ الْأَقْدَامُ﴾ الضمير في ﴿به﴾ عائذ على الماء الذي شد دهن الوادي، كما تقدم. وقيل: هو عائذ على ربط القلوب؛ فيكون تثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة في موطن الحرب.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْي مَعَكُمْ فَقَبِلُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْي مَعَكُمْ﴾ العامل في «إذ، يثبت» أي يثبت به الأقدام ذلك الوقت. وقيل: العامل «ليربط» أي ويربط إذ يوحى. وقد يكون التقدير: اذكر ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْي مَعَكُمْ﴾ في موضع نصب، والمعنى: بأنى معكم، أي بالنصر والمعونة. ﴿مَعَكُمْ﴾ بفتح العين ظرف، ومن أسكنها فهي عنده حرف. ﴿فَقَبِلُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي بشروهم بالنصر أو القتال معهم أو الحضور معهم من غير قتال؛ فكان الملك يسير أمام الصف في صورة الرجل ويقول: سيروا فإن الله ناصركم. ويظن المسلمون أنه منهم؛ وقد تقدم في «آل عمران» أن الملائكة قاتلت ذلك اليوم. فكانوا يرون رؤوسا تندر عن الأعناق (٢) من غير ضارب يرونه. وسمع بعضهم قائلًا يسمع قوله ولا يرى شخصه: أقدم حيزوم (٣). وقيل: كان هذا التثبيت ذكر رسول الله ﷺ للمؤمنين نزول الملائكة مدا.

قوله تعالى ﴿سَأْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ تقدم في آل عمران بيانه. ﴿فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ هذا أمر للملائكة. وقيل: للمؤمنين، أي اضطربوا الأعناق، و﴿فَوْقَ﴾ زائدة؛ قاله الأخفش والضحاك وعطية. وقد روى المسعودي قال قال رسول الله ﷺ: «إني لم أبعث لأعذب بأعذاب الله وإنما بعثت بضرب الرقاب وشد الوثاق» (٤). وقال محمد بن يزيد: هذا خطأ؛ لأن ﴿فَوْقَ﴾ تفيد معنى فلا يجوز زيادتها، ولكن المعنى أنهم أبيع لهم ضرب الوجوه وما قرب منها. وقال ابن عباس: كل هام وجمجمة. وقيل: أي ما فوق الأعناق، وهو الرؤوس (٥)؛ قال عكرمة. والمضرب على الرأس أبلغ؛ لأن أذن شيء يؤثر في الدماغ. وقد مضى شيء من هذا المعنى في «النساء» وأن ﴿فَوْقَ﴾ ليست بزائدة، عند قوله ﴿فَوْقَ اثْنَيْنِ﴾ [النساء: ١١]. ﴿وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال الزجاج: واحد البنان بنانة، وهي هنا الأصابع وغيرها من الأعضاء. والبنان مشتق من قولهم: أبن الرجل بالمكان إذا أقام به. فالبنان يعتمل به ما يكون للإقامة والحياة. وقيل: المراد بالبنان هنا أطراف الأصابع من اليدين والرجلين. وهو عبارة عن الثبات في الحرب وموضع الضرب؛ فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال بخلاف سائر الأعضاء. قلل عشرة:

(١) صحيح: وقد سبق.

(٢) تندر عن الأعناق: تسقط كما في اللسان.

(٣) صحيح: مسلم (١٧٦٣) في الجهاد والسير ضمن حديث طويل سبق تخريجه.

(٤) ضعيف جدًا: رواه الطبري (٩/ ٢١١) مرسلان عن المسعودي عن القاسم، والمسعودي مختلط ولم أره إلا هنا.

(٥) كذا عند الطبري (٩/ ٢١١).

وَكَانَ قَتَى الْهَيْجَاءِ يَحْمِي ذِمَارَهَا  
وَمَا جَاءَ أَنَّ الْبَنَانَ الْأَصَابِعِ قَوْلَ عَنْتَرَةَ أَيْضًا:  
وَأَنَّ الْمَوْتَ طَوَّعَ يَدِي إِذَا مَا  
وَصَلَّتْ بَنَانَهَا بِالْهِنْدَوَانِي

وهو كثير في أشعار العرب، البنان: الأصابع. قال ابن فارس: البنان الأصابع، ويقال: الأطراف. وذكر بعضهم أنها سميت بنانا لأن بها صلاح الأحوال التي بها يستقر الإنسان وبين. وقال الضحاك: البنان كل مفصل (١).

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ﴿ ذَٰلِكَ فَذُوقُوهُ  
وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى ﴿ذَلِكَ﴾ في موضع رفع على الابتداء، والتقدير: ذلك الأمر، أو الأمر ذلك. ﴿شَاقُوا اللَّهَ﴾ أي أوليائه. والشقاق: أن يصير كل واحد في شق. وقد تقدم. ﴿ذَلِكُمْ﴾ رفع بإضمار الأمر أو القصة، أي الأمر ذلكم فذوقوه. ويجوز أن يكون في موضع نصب بـ ﴿فَذُوقُوهُ﴾ كقولك: زيدا فاضربه. ومعنى الكلام التوبيخ للكافرين. ﴿وَأَنَّ﴾ في موضع رفع عطف على ذلكم. قال الفراء: ويجوز أن يكون في موضع نصب بمعنى ويأن للكافرين. قال: ويجوز أن يضمر واعلموا أن. الزجاج: لو جاز إضمار لجاز زيد منطلق وعمرا جالسا، بل كان يجوز في الابتداء زيدا منطلقا؛ لأن المخبر معلم، وهذا لا يقوله أحد من النحويين.

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفَا فَلَا تُولُوهُمُ الْآدْبَارَ ﴾ ﴿ وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يُؤَمِّدُ ذُبْرَهُ إِلَّا  
مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِقَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَنُهُ جَهَنَّمَ وَنَسَّ الْمَصِيرَ ﴾ ﴿  
فيه سبع مسائل :

الأولى: قوله تعالى ﴿زَحَفَا﴾ الزحف الدنو قليلا قليلا. وأصله الاندفاع على الآلية؛ ثم سمي كل ماش في الحرب إلى آخر زاحفا. والتزاحف: التذاني والتقارب؛ يقال: زحف إلى العدو زحفا. وازحف القوم، أي مشى بعضهم إلى بعض. ومنه زحاف الشعر، وهو أن يسقط بين الحرفين حرف فيزحف أحدهما إلى الآخر. يقول: إذا تدانيتم وتعاينتم فلا تعرفوا عنهم ولا تعطوهم أدباركم. حرم الله ذلك على المؤمنين حين فرض عليهم الجهاد وقتال الكفار. قال ابن عطية (٢): والادبار جمع دبر. والعبارة بالدبر في هذه الآية متمكنة الفصاحة؛ لأنها بشعة على الفار، ذامة له.

الثانية: أمر الله عز وجل في هذه الآية ألا يولي المؤمنون أمام الكفار. وهذا الأمر مقيد بالشريطة المنصوصة في مثلي المؤمنين؛ فإذا لقيت فئة من المؤمنين فئة هي ضعف المؤمنين من المشركين فالتعرض ألا يفروا أمامهم. فمن فر من اثنين فهو فار من الزحف. ومن فر من ثلاثة فليس يفار من الزحف،

(١) كذا عند الطبري (٩/ ٢١٢) في تفسيره.

(٢) المحرر الوجيز (٦/ ٢٤٦) لابن عطية الأندلسي رضى الله عنه.

ولا يتوجه عليه الوعيد. والفرار كبيرة موبقة بظاهر القرآن وإجماع الأكثر من الأئمة. وقالت فرقة منهم ابن الماجشون في الواضحة: إنه يراعى الضعف والقوة والعدة؛ فيجوز على قولهم أن يفر مائة فارس من مائة فارس إذا علموا أن ما عند المشركين من السجدة والبسالة ضعف ما عندهم. وأما على قول الجمهور فلا يحل فرار مائة إلا بما زاد على المائتين؛ فمهما كان في مقابلة مسلم أكثر من اثنين فيجوز الانهزام، والصبر أحسن. وقد وقف جيش مؤتة وهم ثلاثة آلاف في مقابلة مائتي ألف، منهم مائة ألف من الروم، ومائة ألف من المستعربة من لحم وجذام.

قلت: ووقع في تاريخ فتح الأندلس، أن طارقاً مولى موسى بن نصير سار في ألف وسبعمائة رجل إلى الأندلس، وذلك في رجب سنة ثلاث وتسعين من الهجرة؛ فالتقى وملك الأندلس لذريق وكان في سبعين ألف عنان؛ فزحف إليه طارق وصبر له فهزم الله الطاغية لذريق، وكان الفتح. قال ابن وهب: سمعت مالكا يسأل عن القوم يلقون العدو أو يكونون في محرس يحرسون فيأتيهم العدو وهم يسير، أيقاتلون أو ينصرفون فيؤذنون أصحابهم؟ قال: إن كانوا يقوون على قتالهم قاتلوهم، وإلا انصرفوا إلى أصحابهم فأذنوهم.

الثالثة: واختلف الناس هل الفرار يوم الزحف مخصوص بيوم بدر أم عام في الزحوف كلها إلى يوم القيامة؟ فروي عن أبي سعيد الخدري أن ذلك مخصوص بيوم بدر<sup>(١)</sup>، وبه قال نافع والحسن وقادة وزيد بن أبي حبيب والضحاك، وبه قال أبو حنيفة. وأن ذلك خاص بأهل بدر فلم يكن لهم أن ينحازوا، ولو انحازوا لانحازوا للمشركين، ولم يكن في الأرض يومئذ مسلمون غيرهم، ولا للمسلمين فته إلا النبي ﷺ؛ فأما بعد ذلك فإن بعضهم فته لبعض. قال الكيا: وهذا فيه نظر؛ لأنه كان بالمدينة خلق كثير من الأنصار لم يأمرهم النبي ﷺ بالخروج ولم يكونوا يرون أنه قتال، وإنما ظنوا أنها العير؛ فخرج رسول الله ﷺ فيمن خف معه. ويروى عن ابن عباس وسائر العلماء أن الآية باقية إلى يوم القيامة. احتج الأولون بما ذكرنا، وبقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فقالوا: هو إشارة إلى يوم بدر، وأنه نسخ حكم الآية بآية الضعف. وبقي حكم الفرار من الزحف ليس بكبيرة. وقد فر الناس يوم أحد فعفا الله عنهم، وقال الله فيهم يوم حنين: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] ولم يقع على ذلك تعنيف. وقال الجمهور من العلماء: إنما ذلك إشارة إلى يوم الزحف الذي يتضمنه قوله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ﴾. وحكم الآية باق إلى يوم القيامة بشرط الضعف الذي بينه الله تعالى في آية أخرى، وليس في الآية نسخ. والدليل عليه أن الآية نزلت بعد القتال وانقضاء الحرب وذهاب اليوم بما فيه. وإلى هذا ذهب مالك والشافعي وأكثر العلماء. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات - وفيه - والتولي يوم الزحف»<sup>(٢)</sup> وهذا نص في المسألة. وأما يوم أحد فإنما فر الناس من أكثر من ضعفهم ومع ذلك عثروا. وأما يوم حنين فكذلك من فر إنما انكشف عن الكثرة؛ على ما يأتي بيانه.

الرابعة: قال ابن القاسم: لا تجوز شهادة من فر من الزحف، ولا يجوز لهم الفرار وإن فر

(١) صحيح: أبو داود (٢٦٤٨) في الجهاد، وأبو جعفر الطبري (٩/ ٢١٤) في تفسيره.

(٢) صحيح: وقد سبق تخريجه في الصحيحين.

إمامهم؛ لقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُؤْمِدْهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ﴾ الآية. قال: ويجوز الفرار من أكثر من ضعفهم، وهذا ما لم يبلغ عدد المسلمين اثني عشر ألفاً؛ فإن بلغ اثني عشر ألفاً لم يحل لهم الفرار وإن زاد عدد المشركين على الضعف؛ لقول رسول الله ﷺ: «ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة»<sup>(١)</sup> فإن أكثر أهل العلم خصصوا هذا العدد بهذا الحديث من عموم الآية.

قلت: رواه أبو بشر وأبو سلمة العاملي، وهو الحكم بن عبدالله بن خطاف وهو متروك. قالوا: حدثنا الزهري عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «يا أكثم بن الجون اغز مع غير قومك يحسن خلقك وتكرم على رفقاتك. يا أكثم بن الجون خير الرفقاء أربعة وخير الطلائع أربعون وخير السرايا أربعمائة وخير الجيوش أربعة آلاف ولن يؤتى اثنا عشر ألفاً من قلة»<sup>(٢)</sup>. وروي عن مالك ما يدل على ذلك من مذهبه وهو قوله للعمري العابد إذ سأله هل لك سعة في ترك مجاهدة من غير الأحكام وبدلها؟ فقال: إن كان معك اثنا عشر ألفاً فلا سعة لك في ذلك.

الخاصة: فإن فر فليستغفر الله عز وجل. روى الترمذي عن بلال بن يسار بن زيد قال: حدثني أبي عن جدي سمع النبي ﷺ يقول: «من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفر الله له وإن كان قد فر من الزحف»<sup>(٣)</sup>. قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

السادسة: قوله تعالى ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ﴾ التحرف: الزوال عن جهة الاستواء. فالتحرف من جانب إلى جانب لمكايد الحرب غير منهزم؛ وكذلك المتحيز إذا نوى التحيز إلى فئة من المسلمين ليستعين بهم فيرجع إلى القتال غير منهزم أيضاً. روى أبو داود عن عبدالله بن عمر أنه كان في سرية من سرايا رسول الله ﷺ قال: فحاص الناس حيصه<sup>(٤)</sup>، فكنت فيمن حاصر، قال: فلما برزنا قلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بال غضب؟ فقلنا: ندخل المدينة فنثبت فيها ونذهب ولا يرانا أحد. قال: فدخلنا فقلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ، فإن كانت لنا توبة أقمنا، وإن كان غير ذلك ذهبنا. قال: فجلسنا لرسول الله ﷺ قبل صلاة الفجر، فلما خرج قمنا إليه فقلنا، نحن الفرارون؛ فأقبل إلينا فقال: «لا بل أنتم الكارون» قال: فدنوننا فقبلنا يده. فقال: «أنا فئة المسلمين»<sup>(٥)</sup>. قال ثعلب: العكارون هم العطافون. وقال غيره: يقال للرجل الذي يولي عند الحرب ثم يكر راجعاً: عكر واعتكر. وروى جرير عن منصور عن إبراهيم قال: انهزم رجل من القادسية فأتى المدينة إلى عمر فقال: يا أمير المؤمنين، هلكت! فررت من الزحف. فقال عمر: أنا فتك<sup>(٦)</sup>. وقال محمد بن سيرين: لما قتل أبو عبيدة جاء الخبر إلى عمر فقال: لو انحاز إلي لكنت له فئة، فأنا فئة كل مسلم. وعلى هذه الأحاديث لا يكون الفرار كبيرة؛ لأن الفشة هنا المدينة والإمام وجماعة المسلمين

(١) صحيح : وقد سبق .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) صحيح : أبو داود (١٥١٧) في الصلاة ، الترمذي (٣٥٧٧) في الدعوات .

(٤) حيصه : في النهاية (١ / ٤٦٨) قال ابن الأثير : جالوا جولة يطلبون الفرار .

(٥) ضعيف : أبو داود (٢٦٤٧) في الجهاد ، الترمذي (١٧١٦) في الجهاد وضعفه الألباني .

(٦) ذكره ابن كثير (٤ / ٢٠) في تفسيره عن محمد بن سيرين ، وعن أبي عثمان النهدي به . ورواه الطبري (٩ / ٢١٦) من طريق أبي عثمان صحيحاً إلى عمر رضی الله عنه .

حيث كانوا. وعلى القول الآخر يكون كبيرة؛ لأن الفئدة هناك الجماعة من الناس الحاضرة للحرب. هذا على قول الجمهور أن الفرار من الزحف كبيرة. قالوا: وإنما كان ذلك القول من النبي ﷺ وعمر على جهة الحيلة على المؤمنين؛ إذ كانوا في ذلك الزمان يشتون لأضعافهم مرارا. والله أعلم. وفي قوله: «والتولي يوم الزحف» ما يكفي.

السابعة: قوله تعالى ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي استحق الغضب. وأصل «باء» رجع وقد تقدم. ﴿وَمَا وَاهُ جَهَنَّمَ﴾ أي مقامه. وهذا لا يدل على الخلود؛ كما تقدم في غير موضع. وقد قال ﷺ: «من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم غفر له وإن كان قد فر من الزحف».

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بِلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ أي يوم بدر. روي أن أصحاب رسول الله ﷺ لما صدروا عن بدر ذكر كل واحد منهم ما فعل: قتل كذا، فعلت كذا؛ فجاء من ذلك تفاخر ونحو ذلك. فنزلت الآية إعلاما بأن الله تعالى هو المميت والمقدر لجميع الأشياء، وأن العبد إنما يشارك بتكسبه وقصده. وهذه الآية ترد على من يقول بأن أفعال العباد خلق لهم. فقيل: المعنى فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم بسوقهم إليكم حتى أمكنكم منهم. وقيل: ولكن الله قتلهم بالملائكة الذين أمدم بهم. ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ مثله. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾. واختلف العلماء في هذا الرمي على أربعة أقوال:

الأول: إن هذا الرمي إنما كان في حصب رسول الله ﷺ يوم حنين؛ رواه ابن وهب عن مالك. قال مالك: ولم يبق في ذلك اليوم أحد إلا وقد أصابه ذلك. وكذلك روى عنه ابن القاسم أيضا.

الثاني: أن هذا كان يوم أحد حين رمى أبي بن خلف بالحربة في عنقه؛ فكر أبي منهزما. فقال له المشركون: والله ما بك من بأس. فقال: والله لو بصق علي لقتلني. أليس قد قال: بل أنا أقتله. وكان أوعد أبي رسول الله ﷺ بالقتل بمكة؛ فقال له رسول الله ﷺ: «بل أنا أقتلك» فمات عدو الله من ضربة رسول الله ﷺ في مرجعه إلى مكة، بموضع يقال له «سرف». قال موسى بن عقبة عن ابن شهاب: لما كان يوم أحد أقبل أبي مقتعا في الحديد على فرسه (١) يقول: لا نجوت إن نجى محمدا؛ فحمل على رسول الله ﷺ يريه قتله. قال موسى بن عقبة قال سعيد بن المسيب: فاعترض له رجال من المؤمنين، فأمرهم رسول الله ﷺ فخلوا طريقه؛ فاستقبله مصعب بن عمير يقي رسول الله ﷺ؛ فقتل مصعب بن عمير، وأبصر رسول الله ﷺ ترقوة أبي بن خلف من فرجة بين سابعة البيضة والدرع؛ فطعنه بحرته فوق أبي عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم. قال سعيد: فكسر ضلعا من أضلاعه؛ فقال: ففي ذلك نزل ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾. وهذا ضعيف؛ لأن الآية نزلت (١) مرسل: الطبري (٩/ ٢١٩) في تفسيره مرسلأ عن الزهري ووصله الحاكم (٣٢٦٣) عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبيه به.

عقيب بدر.

الثالث: أن المراد السهم الذي رمى به رسول الله ﷺ في حصن خيبر، فسار في الهواء حتى أصاب ابن أبي الحقيق وهو على فراشه. وهذا أيضا فاسد، وخيبر وفتحها أبعد من أحد بكثير. والصحيح في صورة قتل ابن أبي الحقيق غير هذا.

الرابع: أنها كانت يوم بدر؛ قال ابن إسحاق، وهو أصح؛ لأن السورة بديرية، وذلك أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ «خذ قبضة من التراب» فأخذ قبضة من التراب فرمى بها وجوههم فما من المشركين، من أحد إلا وأصاب عينيه ومنخره وفمه تراب من تلك القبضة؛ وقاله ابن عباس (١)؛ وسيأتي، قال ثعلب: المعنى ﴿وَمَا رَمَيْتُ﴾ الفزع والرعب في قلوبهم ﴿إِذْ رَمَيْتُ﴾ بالحصباء فانهمزوا ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ أي أعانك وأظفرك، والعرب تقول: رمى الله لك، أي أعانك وأظفرك وصنع لك. حكى هذا أبو عبيدة في كتاب المجاز. وقال محمد بن يزيد: وما رميت بقوتك، إذ رميت، ولكنك بقوة الله رميت. ﴿وَلِيْلِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ البلاء هنا النعمة. واللام تتعلق بمحذوف؛ أي وليلي المؤمنين فعل ذلك. ﴿مُوْهِنٌ﴾

قراءة أهل الحرمين وأبي عمرو. وقراءة أهل الكوفة «موهّن كيد الكافرين». وفي التشديد معنى المبالغة. وروي عن الحسن «موهن كيد الكافرين» بالإضافة والتخفيف. والمعنى: أن الله عز وجل يلقي في قلوبهم الرعب حتى يتشتوا ويتفرق جمعهم فيضعفوا. والكيد: المكر. وقد تقدم.

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَدُّوْا قَدْ وَلَنْ تَغْنِي عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ شرط وجوابه، وفيه ثلاثة أقوال: يكون خطابا للكفار؛ لأنهم استفتحوا فقالوا: اللهم أقطعنا للرحم وأقطعنا لصلحبه فاتصره عليه؛ قاله الحسن ومجاهد وغيرهما. وكان هذا القول منهم وقت خروجهم لنصرة العير، وقيل: قاله أبو جهل وقت القتال (٢). وقال النضر بن الحارث: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. وهو عن قتل بيده، والاستفتاح: طلب النصر؛ أي قد جاءكم الفتح ولكنه كان للمسلمين عليكم، أي: قد جاءكم ما بان به الأمر، وانكشف لكم الحق. ﴿وَإِنْ تَنْهَوْا﴾ أي عن الكفر ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾. ﴿وَإِنْ تَوَدُّوْا﴾ أي إلى هذا القول وقتال محمد. ﴿نَعُدُّ﴾ إلى نصر المؤمنين. ﴿وَلَنْ تَغْنِي عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ﴾ أي عن جماعتكم ﴿شَيْئًا﴾. ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي: في العدد.

الثاني: يكون خطابا للمؤمنين؛ أي إن تستصبروا فقد جاءكم النصر. وإن ﴿تَنْهَوْا﴾ أي عن مثل ما فعلتموه من أخذ الغنائم والأسرى قبل الإذن؛ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾. و﴿وَإِنْ تَوَدُّوْا﴾ أي إلى مثل ذلك نعد إلى توبيخكم. كما قال: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ [الأنفال: ٦٨] الآية.

(١) ضعيف: للاقتطاع بين علي بن أبي طلحة وابن عباس رضى الله عنهما، والطبري (٩/ ٢١٨).

(٢) وهذا صحيح: رواه أحمد (٥/ ٤٣١) في المسند، والنسائي (١١٢٠) في الكبرى، والحاكم (٢/ ٣٥٧) في المستدرک عن عبد الله بن ثعلبة وهو صحابي له رؤية، ومراسيل الصحابة مقبولة.

والقول الثالث: أن يكون ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ خطاباً للمؤمنين، وما بعده للكفار. أي وإن تعودوا إلى القتال نعد إلى مثل وقعة بدر، القشيري: والصحيح أنه خطاب للكفار؛ فإنهم لما نغروا إلى نصرة العير تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم انصر أهدى الطائفتين، وأفضل الدينين، المهدي: وروي أن المشركين خرجوا معهم بأستار الكعبة يستفتحون بها، أي يستنصرون.

قلت: ولا تعارض لاحتمال أن يكونوا فعلوا الحاليتين.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بكسر الألف على الاستئناف، وبفتحة عطف على قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَوْهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٨]. أو على قوله ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ [الأنفال: ١٢]. والمعنى: ولأن الله؛ والتخفيف لكثرتها وأن الله. أي من كان الله في نصره لم تغلبه فئة وإن كثرت.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتَّبِعُوا مَن لَّمْ يَتَّبِعْهُ﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الخطاب للمؤمنين المصدقين. أفردهم بالخطاب دون المنافقين إجلالاً لهم. جدد الله عليهم الأمر بطاعة الله والرسول، ونهاهم عن التولي عنه. هذا قول الجمهور، وقالت فرقة: الخطاب بهذه الآية إنما هو للمنافقين. والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بالستهم فقط، قال ابن عطية: وهذا وإن كان محتملاً على بعد فهو ضعيف جداً؛ لأن الله تعالى وصف من خاطب في هذه الآية بالإيمان، والإيمان التصديق، والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشيء، وأبعد من هذا من قال: إن الخطاب لبني إسرائيل، فإنه أجنبي من الآية.

قوله تعالى ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ﴾ التولي الإعراض. وقال ﴿عَنَّهُ﴾ ولم يقل عنهما لأن طاعة الرسول طاعته؛ وهو كقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: ٦٢]. ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ ابتداء وخبر في موضع الحال. والمعنى: وأنتم تسمعون ما يتلى عليكم من الحجج والبراهين في القرآن.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ١٣٣ ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ١٣٤

قوله تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ أي كاليهود أو المنافقين أو المشركين، وهو من سماع الأذن. ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا يتدبرون ما سمعوا، ولا يفكرون فيه، فهم بمنزلة من لم يسمع وأعرض عن الحق. نهى المؤمنين أن يكونوا مثلهم، فدللت الآية على أن قول المؤمن: سمعت وأطعت، لا فائدة فيه ما لم يظهر أثر ذلك عليه بامثال فعله، فإذا قصر في الأوامر فلم يأتها، واعتمد النواهي فاقتمها فأبى سمع عنده وأي طاعة! وإنما يكون حينئذ بمنزلة المنافق الذي يظهر الإيمان، ويسر الكفر؛ وذلك هو المراد بقوله ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾. يعني بذلك المنافقين، أو اليهود أو المشركين، على ما تقدم، ثم أخبر تعالى أن الكفار شر ما دب على الأرض، وفي البخاري عن ابن عباس ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ قال: هم نفر من بني عبد الدار<sup>(١)</sup>. والأصل

(١) صحيح: البخاري (٤٦٤٦) في التفسير، والطبري (٩/ ٢٢٥).

أشر، حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال. وكذا خير؛ الأصل أخير.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ قيل: الحجج والبراهين؛ إسماع تفهم، ولكن سبق علمه بشقاوتهم ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ أي: لو أفهمهم لما آمنوا بعد علمه الأزلي بكفرهم، وقيل: المعنى لاسمعهم كلام الموتى الذين طلبوا إحياءهم؛ لأنهم طلبوا إحياء قصي بن كلاب وغيره ليشهدوا بنبوّة محمد ﷺ. الزجاج: لاسمعهم جواب كل ما سألوا عنه، ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ إذ سبق في علمه أنهم لا يؤمنون.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ  
الْمَرَّةِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ هذا الخطاب للمؤمنين المصدقين بلا خلاف. والاستجابة: الإجابة. و﴿يُحْيِيكُمْ﴾ أصله يحييكم، حذفت الضمة من الياء لثقلها. ولا يجوز الإدغام. قال أبو عبيدة: معنى «استجيبوا» أجيوا؛ ولكن عرف الكلام أن يتعدى استجاب بلام، ويتعدى أجاب دون لام. قال الله تعالى: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ [الاحقاف: ٢٣١]. وقد يتعدى استجاب بغير لام؛ والشاهد له قول الشاعر:

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب

تقول: أجاهه وأجاب عن سؤاله. والمصدر الإجابة، والاسم الجابة؛ بمنزلة الطاقة والطاعة، تقول: أساء سمعا فأساء جابة، هكذا يتكلم بهذا الحرف، والمجاوبة والتجاوب: التناوب. وتقول: إنه لحسن الجيبة «بالكسر» أي الجواب. ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ متعلق بقوله: «استجيبوا». المعنى: استجيبوا لما يحييكم إذا دعاكم. وقيل: اللام بمعنى إلى، أي إلى ما يحييكم، أي يحيي دينكم ويعلمكم. وقيل: أي إلى ما يحيي به قلوبكم فتوحده، وهذا إحياء مستعار؛ لأنه من موت الكفر والجهل. وقال مجاهد والجمهور: المعنى استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواه؛ ففيه الحياة الأبدية، والنعمة السرمدية<sup>(١)</sup>، وقيل: المراد بقوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الجهاد، فإنه سبب الحياة في الظاهر، لأن العدو إذا لم يُغز غزاً؛ وفي غزوه الموت، والموت في الجهاد الحياة الأبدية؛ قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تُحْسِنُ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحياء﴾ [آل عمران: ١٦٩] والصحيح العموم كما قال الجمهور.

الثانية: روى البخاري عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله

ﷺ فلم أجه، ثم أتيتته فقلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي، فقال: «الم يقل الله عز وجل: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾»<sup>(٢)</sup> وذكر الحديث، وقد تقدم في «الفاحة» وقال الشافعي رحمه الله: هذا دليل على أن الفعل الفرض أو القول الفرض إذا أتى به في الصلاة لا تبطل؛ لأمر

(١) انظر الطبري (٩/ ٢٢٧) بنحوه في تفسيره.

(٢) صحيح: وقد سبق عند سورة الفاتحة.

رسول الله ﷺ بالإجابة وإن كان في الصلاة.

قلت: وفيه حجة لقول الأوزاعي: لو أن رجلا يصلي فأبصر غلاما يريد أن يسقط في بئر فصاح به وانصرف إليه وانتهره لم يكن بذلك بأس. والله أعلم.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ قيل: إنه يقتضي النص منه على خلقه تعالى الكفر والإيمان فيحول بين المرء الكافر وبين الإيمان الذي أمره به، فلا يكتسبه إذا لم يقدره عليه بل أقدره على ضده وهو الكفر، وهكذا المؤمن يحول بينه وبين الكفر، فبان بهذا النص أنه تعالى خالق لجميع اكتساب العباد خيرا وشرا. وهذا معنى قوله عليه السلام: «لا، ومقلب القلوب» (١). وكان فعل الله تعالى ذلك عدلا فيمن أضله وخذله؛ إذ لم يمنعهما حقا وجب عليه فتزول صفة العدل، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم. قال السدي: يحول بين المرء وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن إلا بإذنه، ولا يكفر أيضا إلا بإذنه (٢)؛ أي: بمشيئته، والقلب موضع الفكر. وقد تقدم في «البقرة» بيانه. وهو بيد الله، متى شاء حال بين العبد وبينه بمرض أو آفة كيلا يعقل. أي بادروا إلى الاستجابة قبل ألا تتمكنوا منها بزوال العقل. وقال مجاهد: المعنى يحول بين المرء وعقله حتى لا يدري ما يصنع (٣). وفي التنزيل ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] أي عقل، وقيل: يحول بينه وبينه بالموت، فلا يمكنه استدراك ما فات. وقيل: خاف المسلمون يوم بدر كثرة العدو فأعلمهم الله أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبذلهم بعد الخوف أمنا، ويبدل عدوهم من الأمن خوفا. وقيل: المعنى يقلب الأمور من حال إلى حال؛ وهذا جامع. واختيار الطبري أن يكون ذلك إخبارا من الله عز وجل بأنه أملك لقلوب العباد منهم، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء؛ حتى لا يدرك الإنسان شيئا إلا بمشيئة الله عز وجل. ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ عطف. قال الفراء: ولو استأنفت فكسرت، «وأنه» كان صوابا.

﴿وَأَتَقُوا فَتْنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قال ابن عباس: أمر الله المؤمنين ألا يقرؤا المنكر بين أظهرهم فيعصمهم العذاب (٤). وكذلك تأول فيها الزبير بن العوام فإنه قال يوم الجمل، وكان سنة ست وثلاثين: ما علمت أنا أردنا بهذه الآية إلا اليوم، وما كنت أظنها إلا فيمن خوطب ذلك الوقت (٥). وكذلك تأول الحسن البصري

(١) صحيح: وقد سبق.

(٢) صحيح إليه: الطبري (٩/ ٢٢٩) في تفسيره.

(٣) رواه الطبري (٩/ ٢٣٠) بإسنادين: أحدهما: منقطع من طريق ابن جريج، والآخر موصول من طريق ابن أبي نجیح به وهو صحيح إليه.

(٤) كذا عند الطبري (٩/ ٢٣٢) والبخاري (٣/ ٣٤٦) وفيه انقطاع بين علي بن أبي طلحة وابن عباس رضى الله عنهما

(٥) كذا رواه الطبري (٩/ ٢٣٢) في التفسير من طرق في إحداهما الحسن البصري عن الزبير ولم يصرح بالتحديث وهو مدلس وقد عنعنه ولا أعلم له سماعاً من الزبير رضى الله عنه، ومن طريق ابن صبهان، وفي مسنده=

والسدي وغيرهما. قال السدي: نزلت الآية في أهل بدر خاصة؛ فأصابتهم الفتنة يوم الجمل فاقتلوا<sup>(١)</sup>. وقال ابن عباس رضي الله عنه: نزلت هذه الآية في أصحاب رسول الله ﷺ وقال: أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر فيما بينهم فيعمهم الله بالعذاب<sup>(٢)</sup>. وعن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون بين ناس من أصحابي فتنة يغفرها الله لهم بصحتهم إياي يستن بهم فيها ناس بعدهم يدخلهم الله بها النار»<sup>(٣)</sup>.

قلت: وهذه التأويلات هي التي تعضدها الأحاديث الصحيحة؛ ففي صحيح مسلم عن زينب بنت جحش أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث»، وفي صحيح الترمذي: «إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده»<sup>(٤)</sup> وقد تقدمت هذه الأحاديث، وفي صحيح البخاري والترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»<sup>(٥)</sup>. ففي هذا الحديث تعذيب العامة بذنوب الخاصة. وفيه استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال علماؤنا: فالفتنة إذا عملت هلك الكل. وذلك عند ظهور المعاصي وانتشار المنكر وعدم التغيير، وإذا لم تغير وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة والهرب منها. وهكذا كان الحكم فيمن كان قبلنا من الأمم؛ كما في قصة السبت حين هجروا العاصين وقالوا: لا نساكنكم، وبهذا قال السلف رضي الله عنهم. روى ابن وهب عن مالك أنه قال: تهجر الأرض التي يصنع فيها المنكر جهاراً ولا يستقر فيها، واحتج بصنيع أبي الدرداء في خروجه عن أرض معاوية حين أعلن بالربا، فأجاز بيع سقاية الذهب بأكثر من وزنها<sup>(٦)</sup>. خرجه الصحيح، وروى البخاري عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أنزل الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على أعمالهم»<sup>(٧)</sup>. فهذا يدل على أن الهلاك العام منه ما يكون طهرة للمؤمنين ومنه ما يكون نقمة للفاسقين، وروى مسلم عن عبدالله بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها قالت: عبت<sup>(٨)</sup> رسول الله ﷺ في منامه، فقلت: يا رسول الله، صنعت شيئاً في منامك لم تكن تفعله؟ فقال: «العجب، إن ناساً من أمتي يؤمنون هذا البيت برجل من قريش قد لجأ

= (الصلت بن دينار) المعروف بـ(المجنون) وهو : متروك الحديث .

(١) كذا في الطبري (٩/ ٢٣٢) .

(٢) انظر قبل السابقين .

(٣) ضعيف : ابن عدي (٤/ ١٤٨) في الكامل .

(٤) صحيح : وقد سبق .

(٥) صحيح : البخاري (٢٤٩٣) في الشركة .

(٦) رواه مالك برقم (٣٤) في كتاب البيوع - باب (١٤) (٢/ ٦٣٤) والنسائي (٧/ ٢٧٩) في البيوع .

(٧) صحيح : البخاري (٧١٠٨) في العتق ، مسلم (٢٨٧٩) في الجنة .

(٨) عبت في منامه : حرّك يديه كالأخذ أو الدافع (اللسان) .

بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم». فقلنا: يا رسول الله، إن الطريق قد يجمع الناس. قال: «نعم، فيهم المستبصر والمحبور وابن السبيل يهلكون مهلكا واحدا ويصدرون مصادر شتى يبعثهم الله تعالى على نياتهم» (١). فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَرَوْا زُرَّةً وَزُرَّةً أُخْرَى﴾ [الانعام: ١٦٤]. ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]. ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وهذا يوجب ألا يؤخذ أحد بذنب أحد، وإنما تتعلق العقوبة بصاحب الذنب. فالجواب أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفرض على كل من رآه أن يغيره؛ فإذا سكت عليه فكلهم عاص. هذا بفعله وهذا برضاه. وقد جعل الله في حكمه وحكمته الراضي بمنزلة العامل؛ فانظم في العقوبة؛ قال ابن العربي (٢). وهو مضمون الأحاديث كما ذكرنا. ومقصود الآية: واتقوا فتنة تعدى الظالم، فتصيب الصالح والطالح.

الثانية: واختلف النحاة في دخول النون في ﴿لَا تُصَيِّنُ﴾. قال الفراء: هو بمنزلة قولك: انزل عن الدابة لا تطرحنك؛ فهو جواب الأمر بلفظ النهي؛ أي: إن تنزل عنها لا تطرحنك. ومثله قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِينَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ﴾ [النمل: ١٨]. أي: إن تدخلوا لا يحطمنكم؛ فدخلت النون لما فيه من معنى الجزاء. وقيل: لأنه خرج مخرج القسم، والنون لا تدخل إلا على فعل النهي أو جواب القسم. وقال أبو العباس المبرد: إنه نهى بعد أمر، والمعنى النهي للظالمين؛ أي لا تقربن الظلم. وحكى سيويه: لا أرينك ههنا؛ أي لا تكن ههنا؛ فإنه من كان ههنا رأيت. وقال الجرجاني: المعنى اتقوا فتنة تصيب الذين ظلموا خاصة. فقلوه ﴿لَا تُصَيِّنُ﴾ نهي في موضع وصف النكرة؛ وتأويله الإخبار بإصابتها الذين ظلموا. وقرأ علي وزيد بن ثابت وأبي وابن مسعود: «لتصيين» بلا ألف. قال المهدي: من قرأ: «لتصيين» جاز أن يكون مقصورا من «لا تصيين» حذف الألف كما حذف من «ما» وهي أخت «لا» في نحو أم والله لأفعلن، وشبهه. ويجوز أن تكون مخالفة لقراءة الجماعة؛ فيكون المعنى أنها تصيب الظالم خاصة.

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ قال الكلبي: نزلت في المهاجرين؛ يعني وصف حالهم قبل الهجرة وفي ابتداء الإسلام. ﴿مُسْتَضْعَفُونَ﴾ نعت. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي أرض مكة. ﴿تَخَافُونَ﴾ نعت. ﴿أَنْ يَخَطَّفَكُمُ﴾ في موضع نصب، والخطب: الأخذ بسرعة. ﴿النَّاسُ﴾ رفع على الفاعل، قتادة وعكرمة: هم مشركو قريش (٣). وهب بن منبه: فارس والروم (٤). ﴿فَأَوَّاكُمْ﴾ قال ابن عباس (٥):

(١) صحيح: مسلم (٢٨٨٤) في الفتن، والمستبصر: في النهاية (١/ ١٣٢) قال ابن الأثير - رحمه الله - : المستيين للشيء، بمعنى: أنهم كانوا على بصيرة من ضلالتهم أرادت (يعني أم المؤمنين) أن الرقعة جمعت الأخيار والأشرار.

(٢) أحكام القرآن (٢/ ٨٤٧).

(٣) (٤، ٣) الطبري (٩/ ٢٣٤) في تفسيره.

(٥) لم أجده مستداً عن ابن عباس.

إلى الأنصار. السدي: إلى المدينة؛ (١) المعنى واحد. آوى إليه «بالمد»: ضم إليه. وأوى إليه «بالقصر»: انضم إليه. «وَأَيَّدَكُمْ» قواكم. «بِنَصْرِهِ» أي بعونه. وقيل: بالأنصار. وقيل: بالملائكة يوم بدر. «مِنَ الطَّيِّبَاتِ» أي: الغنائم. «لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» قد تقدم معناه.

### ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

روي أنها نزلت في أبي لُبابة بن عبدالمنذر حين أشار إلى بني قريظة بالذبح. قال أبو لُبابة: والله ما رالت قدمي حتى علمت أنني قد خنت الله ورسوله؛ فنزلت هذه الآية. فلما نزلت شد نفسه إلى سارية من سواري المسجد، وقال: والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت، أو يتوب الله علي. الخبير مشهور (٢). وعن عكرمة قال: لما كان شأن قريظة بعث النبي ﷺ عليا رضي الله عنه فيمن كان عنده من الناس؛ فلما انتهى إليهم وقعوا في رسول الله ﷺ، وجاء جبريل عليه السلام على فرس أبلق فقالت عائشة رضي الله عنها: فلكناني أنظر إلى رسول الله ﷺ يمسح الغبار عن وجه جبريل عليهما السلام؛ فقلت: هذا دحية يا رسول الله؟ فقال: «هذا جبريل عليه السلام». قال: «يا رسول الله ما يمنعك من بني قريظة أن تأتيهم؟» فقال رسول الله ﷺ: «فكيف لي بحصنهم؟» فقال جبريل: «فإني أدخل فرسي هذا عليهم». فركب رسول الله ﷺ فرسا معرورى (٣)؛ فلما رآه علي رضي الله عنه قال: يا رسول الله، لا عليك ألا تأتيهم، فإنهم يشتمونك. فقال: «كلا إنها ستكون تحية». فاتاهم النبي ﷺ فقال: «يا إخوة القردة والخنازير» فقالوا: يا أبا القاسم، ما كنت فحاشا! فقالوا: لا نزل على حكم محمد، ولكننا نزل على حكم سعد بن معاذ؛ فنزل. فحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتُسبى ذراريهم. فقال رسول الله ﷺ: «بذلك طرقتي الملك سحرا». فنزل فيهم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ». نزلت في أبي لُبابة، أشار إلى بني قريظة حين قالوا: نزل على حكم سعد بن معاذ، لا تفعلوا فإنه الذبح، وأشار إلى حلقه. نزلت الآية في أنهم يسمعون الشيء من النبي ﷺ فيلقونه إلى المشركين ويفشونه (٤). وقيل: المعنى بظول الغنائم. ونسبتها إلى الله؛ لأنه هو الذي أمر بقسمتها. وإلى رسول الله ﷺ؛ لأنه المؤدي من الله عز وجل والقيم بها. والخيانة: الغدر وإخفاء الشيء؛ ومنه «يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ» [غافر: ١٩] وكان عليه السلام يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ومن الخيانة فإنه بئس البهانة» (٥). خرجة النسائي عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يقول؛ فذكره. «وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ» في موضع جزم، نسقا على الأول. وقد يكون على الجواب؛ كما يقال: لا تأكل السمك وتشرب اللبن. والأمانات: الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد. وسميت أمانة لأنها يؤمن معها من منع الحق؛ مأخوذة من الأمان. وقد تقدم في «النساء» القول في أداء الأمانات والودائع وغير ذلك. «وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» أي ما في

(١) انظر قبل السابق .

(٢) مرسل : أرسله الزهري كما عند الطبري (٩/ ٢٣٥) في تفسيره .

(٣) معرورى : في اللسان : لا سرج عليه ولا غيره ، واعرورى فرسه ، ربه عريانا .

(٤) هذا مرسل : عكرمة تابعي جليل .

(٥) صحيح : أبو داود (١٥٤٧) في الصلاة ، والنسائي (٨/ ٢٦٣) في الاستعاذة .

الخيانة من القبح والعار. وقيل: تعلمون أنها أمانة.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ كان لا يبي لبابة أموال وأولاد في بني قريظة: وهو الذي حملته على ملايتهم؛ فهذا إشارة إلى ذلك. ﴿فِتْنَةٌ﴾ أي: اختبار؛ امتحنهم بها. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فآثروا حقه على حقوقكم.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

قد تقدم معنى «التقوى». وكان الله عالما بأنهم يتقون أم لا يتقون. فذكر بلفظ الشرط؛ لأنه خاطب العباد بما يخاطب بعضهم بعضا. فإذا اتقى العبد ربه - وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه - وترك الشبهات مخافة الوقوع في المحرمات، وشحن قلبه بالنية الخالصة، وجوارحه بالأعمال الصالحة، وتحفظ من شوائب الشرك الخفي والظاهر بمراعاة غير الله في الأعمال، والركون إلى الدنيا بالعفة عن المال، جعل له بين الحق والباطل فرقانا، ورزقه فيما يريد من الخير إمكانا. قال ابن وهب: سألت مالكا عن قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ قال: مخرجا، ثم قرأ ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]. وحكى ابن القاسم وأشهب عن مالك فضله سواء، وقاله مجاهد قبله<sup>(١)</sup>. وقال الشاعر:

مَالِكٌ مِّنْ طَوْلِ الْأَسَىٰ فَرْقَانٌ      بَعْدَ قَطِينِ رَحْلُوا وَبَانُوا

وقال آخر:

وَكَيْفَ أُرْجِي الْخُلْدَ وَالْمَوْتَ طَالِبِي      وَمَا لِي مِّنْ كَأْسِ الْمَنِيِّ فَرْقَانُ

ابن إسحاق: ﴿فُرْقَانًا﴾ فصلا بين الحق والباطل<sup>(٢)</sup>؛ وقاله ابن زيد. السدي: نجاة<sup>(٣)</sup>. الفراء: فتحا ونصرا. وقيل: في الآخرة، فيدخلكم الجنة ويدخل الكفار النار.

﴿وَإِذْ يَنْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَنْكُرُونَ وَيَنْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرُ الْمُنْكَرِينَ﴾

هذا إخبار بما اجتمع عليه المشركون من المكر بالنبي ﷺ في دار الندوة؛ فاجتمع رأيهم على قتله فيبتوه، ورسدوه على باب منزله طول ليلتهم ليقتلوه إذا خرج؛ فأمر النبي ﷺ علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه، ودعا الله عز وجل أن يعصم عليهم أثره، فطمس الله على أبصارهم، فخرج وقد غشيهم النوم، فوضع على رؤوسهم ترابا ونهض، فلما أصبحوا خرج عليهم علي فأخبرهم أن

(١) كذا عند الطبري (٩ / ٢٣٩) في تفسيره بسند صحيح عنه .

(٢، ٣) السابق (٩ / ٢٤٠) .

ليس في الدار أحد، فعلموا أن رسول الله ﷺ قد فات ونجا<sup>(١)</sup>. الخبر مشهور في السيرة وغيرها. ومعنى «لَيْشْتُوكَ» ليحبسوك؛ يقال: أثبتته إذا حبسته. وقال قتادة: «لَيْشْتُوكَ» وثاقا<sup>(٢)</sup>. وعنه أيضا وعبدالله ابن كثير: ليسجنوك<sup>(٣)</sup>. وقال أبان بن تغلب وأبو حاتم: ليشخنوك بالجراحات والضرب الشديد. قال الشاعر:

فَقَلْتُ وَيَحْكُمًا مَا فِي صَحِيفَتِكُمْ قَالُوا الْخَلِيفَةُ أَمْسَى مُبْتَأً وَجِعًا

«أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ» عطف. «وَيَمَكُرُونَ» مستأنف. والمكر: التدبير في الأمر في خفية. «وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ» ابتداء وخبر. والمكر من الله هو جزاؤهم بالعذاب على مكرهم من حيث لا يشعرون.

﴿وَإِذَا تَنَزَّلْنَا عَلَيْنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ﴾

نزلت في النضر بن الحارث؛ كان خرج إلى الحيرة في التجارة فاشتري أحاديث كليلة ودمنة، وكسرى وقيصر؛ فلما قص رسول الله ﷺ أخبار من مضى قال النضر: لو شئت لقلت مثل هذا<sup>(٤)</sup>. وكان هذا وقاحة وكذبا. وقيل: إنهم توهموا أنهم يأتون بمثله، كما توهمت سحرة موسى، ثم راموا ذلك فعجزوا عنه وقالوا عنادا: إن هذا إلا أساطير الأولين. وقد تقدم.

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ إِنَّا بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾

القراء على نصب «الحق» على خبر «كان» ودخلت «هو» للفصل. ويجوز «هو الحق» بالرفع. «مِنْ عِنْدِكَ» قال الزجاج: ولا أعلم أحدا قرأ بها. ولا اختلاف بين النحويين في إجازتها ولكن القراءة سنة، لا يقرأ فيها إلا بقراءة مرضية. واختلف فيمن قال هذه المقالة؛ فقال مجاهد وابن جبير: قائل هذا هو النضر بن الحارث<sup>(٥)</sup>. أنس بن مالك: قائله أبو جهل؛ رواه البخاري ومسلم<sup>(٦)</sup>. ثم يجوز أن يقال: قالوه لشبهة كانت في صدورهم، أو على وجه العناد والإبهام على الناس أنهم على بصيرة، ثم حل بهم يوم بدر ما سألوا. حكى أن ابن عباس لقيه رجل من اليهود؛ فقال اليهودي: ممن أنت؟ قال: من قريش. فقال: أنت من القوم الذين قالوا: «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ» [الأنفال: ٣٢] الآية. فهلا عليهم أن يقولوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له! إن هؤلاء قوم يجهلون. قال ابن عباس: وأنت يا إسرائيلي، من القوم الذين لم تحب أرجلهم من بلل البحر الذي أغرق فيه فرعون وقومه، وأنجى موسى وقومه؛ حتى قالوا: «اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ» [الاعراف: ١٣٨] فقال لهم موسى:

(١) رواه الطبري (٩/ ٣٤٢) في تفسيره من طريق ابن اسحاق وفيه عننة وهو مدلس .

(٢) السابق (٩/ ٢٤٤) .

(٤) رواه الطبري (٩/ ٢٤٦) عن ابن جريج معضلاً وعن السدي وعن ابن جبير مرسلأ .

(٥) مرسل : انظر السابق .

(٦) صحيح : البخاري (٤٦٤٩) في التفسير ، ومسلم (٢٧٩٦) في صفات المنافقين .

﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الاعراف: ١٣٨] فأطرق اليهودي مفتحاً. ﴿فَأَمْطِرْ﴾ أمطر في العذاب. ومطر في الرحمة؛ عن أبي عبيدة. وقد تقدم.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ﴿٣٥﴾

لما قال أبو جهل ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ الآية، نزلت ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ (١) كذا في صحيح مسلم. وقال ابن عباس: لم يعذب أهل قرية حتى يخرج النبي ﷺ منها والمؤمنون؛ يلحقوا بحيث أمروا (٢) ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ابن عباس: كانوا يقولون في الطواف: غفرانك (٣). والاستغفار وإن وقع من الفجار يدفع به ضرب من الشرور والإضرار. وقيل: إن الاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهرهم. أي وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر من المسلمين؛ فلما خرجوا عذبهم الله يوم بدر وغيره؛.

قاله الضحاك (٤) وغيره. وقيل: إن الاستغفار هنا يراد به الإسلام، أي ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي يسلمون؛ قاله مجاهد وعكرمة. وقيل ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي في أصلاهم من يستغفر الله، روي عن مجاهد أيضاً.

وقيل: معنى ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٥) لو استغفروا، أي لو استغفروا لم يعذبوا، استدعاهم إلى الاستغفار؛ قاله قتادة وابن زيد. وقال المدائني عن بعض العلماء قال: كان رجل من العرب في زمن النبي ﷺ مسرفاً على نفسه، لم يكن يتحرج؛ فلما أن توفي النبي ﷺ لبس الصوف ورجع عما كان عليه، وأظهر الدين والنسك.

فقيل له: لو فعلت هذا والنبي ﷺ حي لفرح بك. قال: كان لي أمانان، فمضى واحد وبقي الآخر؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ فهذا أمان، والثاني ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ المعنى: وما يمنعهم من أن يعذبوا. أي إنهم مستحقون العذاب لما ارتكبوا من القبائح والأسباب، ولكن لكل أجل كتاب؛ فعذبهم الله بالسيف بعد خروج النبي ﷺ. وفي ذلك نزلت: ﴿سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١].

وقال الأخفش: إن ﴿أَنْ﴾ زائدة، قال النحاس: لو كان كما قال لرفع: ﴿يعذبهم﴾. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي إن المتقين أولياؤه.

(١) صحيح: وقد سبق تخريجه.

(٢) ضعيف: من طريق العوفيين قد رواه الطبري (٩/ ٢٥٠) في تفسيره.

(٣) صحيح: الطبري (٩/ ٢٥٠) البيهقي (٥/ ٤٥) في الكبرى، وله أصل عند مسلم (١١٨٥).

(٤، ٥) الطبري (٩/ ٢٤٩، ٢٥٠).

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ٥١ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ ﴿٥٢ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٣﴾

قال ابن عباس: كانت قريش تطوف بالبيت عراة، يصفقون ويصفرون؛ فكان ذلك عبادة في ظنهم (١) والمكاء: الصفير. والتصديّة: التصفيق (٢)؛ قاله مجاهد والسدي وابن عمر رضي الله عنهم. ومنه قول عنترة:

وَحَلِيلُ غَانِيَةٍ تَرَكْتُ مَجْدَلًا تَمَكُّو فَرِيصَتَهُ كَشْدَقِ الْأَعْلَمِ

أي تصوت. ومنه مکت است الدابة إذا نفخت بالريح، قال السدي: المكاء الصفير، على لحن طائر أبيض بالحجاز يقال له المكاء. قال الشاعر:

إِذَا غَرَدَ الْمَكَاءُ فِي غَيْرِ رَوْضَةٍ قَوْلِيلٌ لِأَهْلِ الشَّاءِ وَالْحَمْرَاتِ

قتادة: المكاء ضرب بالأيدي، والتصديّة صياح (٣). وعلى التفسيرين ففيه رد على الجهال من الصوفية الذين يرقصون ويصفقون ويصعقون، وذلك كله منكر يتنزه عن مثله العقلاء، ويشبهه فاعله بالمشركين فيما كانوا يفعلونه عند البيت، وروى ابن جريج وابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال: المكاء إدخالهم أصابعهم في أفواههم، والتصديّة: الصفير (٤)، يريدون أن يشغلوا بذلك محمدا ﷺ عن الصلاة. قال النحاس: المعروف في اللغة ما روي عن ابن عمر، حكى أبو عبيد وغيره أنه يقال: مكا يمكو مكوًا ومكاء إذا صفر، وصدى يصدى تصديّة إذا صفق؛ ومنه قول عمرو بن الإطابة:

وَطَلَّوْا جَمِيعًا لَهُمْ ضَمَجَةٌ مَكَاءٌ لَدَى الْبَيْتِ بِالتَّصَدِيَةِ

أي بالتصفيق، سعيده بن جبير وابن زيد: معنى التصديّة صدهم عن البيت (٥)؛ فالأصل على هذا تصدده، فأبدل من أحد الدالين ياء.

معنى ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي المؤمن من الكافر. وقيل: هو عام في كل شيء، من الأعمال والنفقات وغير ذلك.

(١) (٢) رواه الطبري عن ابن عباس منقطعاً من طريق علي بن أبي طلحة ومن طريق العوفيين وهو ضعيف، ورواه من طريق مجاهد عن ابن عباس بسند حسن، وكذا من طريق ابن جبير عن ابن عباس به، ورواه عن ابن عمر بسند حسن، ورواه عن مجاهد وغيره.

(٣) صحيح إليه: السابق (٩/ ٢٥٧).

(٤) انظر قبل السابق.

(٥) السابق (٩/ ٢٥٨).

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأُولِينَ ﴾  
فيه خمس مسائل :

الاولى : قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أمر النبي ﷺ أن يقول للكفار هذا المعنى، وسواء قاله بهذه العبارة أو غيرها. قال ابن عطية (١) : ولو كان كما ذكر الكسائي أنه في مصحف عبد الله بن مسعود « قل للذين كفروا إن تنتهوا يغفر لكم » لما تأدت الرسالة إلا بتلك الألفاظ بعينها؛ هذا بحسب ما تقتضيه الألفاظ.

الثانية : قوله تعالى ﴿إِنْ يَنْتَهُوا﴾ يريد عن الكفر. قال ابن عطية (٢) : ولا بد؛ والحامل على ذلك جواب الشرط «يُغْفَرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ» ومغفرة ما قد سلف لا تكون إلا لنته عن الكفر. ولقد أحسن القائل أبو سعيد أحمد بن محمد الزبيرى:

يَسْتَجِبُ الْعَفْوُ الْفَتَى إِذَا اعْتَرَفَ      ثُمَّ أَنْتَهَى عَمَّا آتَاهُ وَاقْتَرَفَ  
لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ فِي الْمَعْتَرَفِ      إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ

روى مسلم عن أبي شماسة المهري قال: حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت يبكي طويلا. الحديث، وفيه: فقال النبي ﷺ: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله» الحديث (٣). قال ابن العربي (٤) : هذه لطيفة من الله سبحانه من بها على الخلق؛ وذلك أن الكفار يقتحمون الكفر والجرائم، ويرتكبون المعاصي والمآثم؛ فلو كان ذلك يوجب مؤاخذه لهم لما استدركوا أبدا توبة ولا نالتهم مغفرة. فيسر الله تعالى عليهم قبول التوبة عند الإنابة، وبذل المغفرة بالإسلام، وهدم جميع ما تقدم؛ ليكون ذلك أقرب لدخولهم في الدين، وأدعى إلى قبولهم لكلمة المسلمين، ولو علموا أنهم يؤاخذون لما تابوا ولا أسلموا. وفي صحيح مسلم: أن رجلا فيمن كان قبلكم قتل تسعة وتسعين نفسا ثم سأل هل له من توبة فجاء عابدا فسأل هل له من توبة فقال: لا توبة لك فقتله فأكمل به مائة؛ الحديث. فانظروا إلى قول العابد: لا توبة لك؛ فلما علم أنه قد آيسه قتله (٥)، فعل الآيس من الرحمة. فالتنفير مفسدة للخليفة، والتيسير مصلحة لهم. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان إذا جاء إليه رجل لم يقتل فسأل: هل لقاتل من توبة؟ فيقول: لا توبة؛ تخويفا وتحذيرا. فإذا جاءه من قتل فسأله: هل لقاتل من توبة؟ قال له: لك توبة؛ تيسيرا وتأليفا. وقد تقدم.

الثالثة : قال ابن القاسم وابن وهب عن مالك فيمن طلق في الشرك ثم أسلم فلا طلاق له. وكذلك من حلف فأسلم فلا حث عليه. وكذا من وجبت عليه هذه الأشياء؛ فذلك مغفور له. فأما من افتري على مسلم ثم أسلم أو سرق ثم أسلم أقيم عليه الحد للفرية والسرقة. ولو زنى وأسلم، أو

(١) (٢) المحرر الوجيز (٦/ ٣٠٠) .

(٣) صحيح : وقد سبق .

(٤) أحكام القرآن (٢/ ٨٥٢) لابن العربي المالكي .

(٥) صحيح : البخاري (٣٤٧٠) في الأنبياء ، ومسلم (٢٧٦٦) في التوبة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

اغتنصب مسلمة ثم أسلم سقط عنه الحد، وروى أشهب عن مالك أنه قال: إنما يعني الله عز وجل ما قد مضى قبل الإسلام، من مال أو دم أو شيء. قال ابن العربي<sup>(١)</sup>: وهذا هو الصواب؛ لما قدمناه من عموم قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾، وقوله: «الإسلام يهدم ما قبله»، وما بيناه من المعنى من التيسير وعدم التنفير.

**قلت:** أما الكافر الحربي فلا خلاف في إسقاط ما فعله في حال كفره في دار الحرب، وأما إن دخل إلينا بأمان فقتل مسلماً فإنه يحد، وإن سرق قطع، وكذلك الذمي إذا قذف حد ثمانين، وإذا سرق قطع، وإن قتل قتل، ولا يسقط الإسلام ذلك عنه لنقضه العهد حال كفره؛ على رواية ابن القاسم وغيره، قال ابن المنذر: واختلفوا في النصراني يزني ثم يسلم، وقد شهدت عليه بيته من المسلمين؛ فحكى عن الشافعي رضي الله عنه إذ هو بالعراق لا حد عليه ولا تغريب؛ لقول الله عز وجل ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ قال ابن المنذر: وهذا موافق لما روي عن مالك. وقال أبو ثور: إذا أقر وهو مسلم أنه زنى وهو كافر أقيم عليه الحد. وحكى عن الكوفي أنه قال: لا يحد.

**الرابعة:** فأما المرتد إذا أسلم وقد فاتته صلوات، وأصاب جنایات وأتلف أموالاً؛ فقليل: حكمه حكم الكافر الأصلي إذا أسلم؛ لا يؤخذ بشيء مما أحدثه في حال ارتداده. وقال الشافعي في أحد قولي: يلزمه كل حق لله عز وجل وللأدومي؛ بدليل أن حقوق الأدوميين تلزمه فوجب أن تلزمه حقوق الله تعالى. وقال أبو حنيفة: ما كان لله يسقط، وما كان للأدومي لا يسقط. قال ابن العربي<sup>(٢)</sup>: وهو قول علمائنا؛ لأن الله تعالى مستغن عن حقه، والأدومي مفتقر إليه. ألا ترى أن حقوق الله عز وجل لا تجب على الصبي وتلزمه حقوق الأدوميين. قالوا: وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ عام في الحقوق لله تعالى.

**الخامسة:** قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُعْذِرُوا﴾ يريد إلى القتال؛ لأن لفظة «عاد» إذا جاءت مطلقة فإمّا تتضمن الرجوع إلى حالة كان الإنسان عليها ثم انتقل عنها. قال ابن عطية<sup>(٣)</sup>: ولنا نجد في هذه الآية لهؤلاء الكفار حالة تشبه ما ذكرنا إلا القتال. ولا يجوز أن يتأول إلى الكفر؛ لأنهم لم ينفصلوا عنه، وإنما قلنا ذلك في «عاد» إذا كانت مطلقة لأنها قد تجيء في كلام العرب داخلة على الابتداء والخبر، فيكون معناها معنى صار؛ كما تقول: عاد زيد ملكاً؛ يريد صار. ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

تلك المكارم لا قعبان من لَبِنٍ      شيباً بماء فعَادَا بعدُ أبوالا

وهذه لا تتضمن الرجوع إلى حالة قد كان العائد عليها قبل. فهي مقيدة بخبرها لا يجوز الاقتصار دونها؛ فحكمها حكم صار.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنْتُ الْأَوَّلِينَ﴾ عبارة تجمع الوعيد والتهديد والتمثيل بمن هلك من الأمم في سالف الدهر بعذاب الله.

(١) (٢) أحكام القرآن (٢/ ٨٥٣، ٨٥٤).

(٣) المحرر الوجيز (٦/ ٣٠٠).